صورة المرأة
بين طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي ومصارع العشاق لابن السراج القارئ
"دراسة موازنة"

منال رشاد حسين عبد الجواد *

manal197427@yahoo.com

ملخص

مما لا شك فيه أن المرأة قد شكلت عبر الحقب التاريخية المختلفة عنصرًا فاعلًا له مكانته على الأصعدة كافة سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية، ولقد حاولت الباحثة أن تستشرف مكانة المرأة العربية المسلمة من خلال مكانة المرأة في طوق الحمامة ،ومصارع العشاق؛ وذلك لإماطة اللثام عن أحوالها من خلال ما حفظته ذاكرة الأمة ووعته سجلات الزمن، وسوف نتناول هنا صورة المرأة من خلال طوق الحمامة وكذلك مصارع العشاق لأنهما من بيئتين مختلفتين المشرقية والأندلسية، فهل أثرت البيئة في اختلاف صورة المرأة في الكتابين؟ خاصة أنّ الكتابين لفقيهين وأنهما عاشا تقريباً في فترة زمنية شبة متقاربة. فهل كان اختلاف البيئة له أثر في اختلاف النظر إلى المرأة؟،حيث إن لمكان إبداع النص والقائه أثراً كبيراً في رسم معالم الإيحاء الفكري والاجتماعي والعاطفي عند مؤلف النص ومتلقيه على حد سواء. فما هي الصورة التي رسمها كل من ابن حزم وابن سراج للمرأة الأندلسية والمشرقية؟ وكيف كان ينظر كلاهما إليها؟ هل كانت البيئة لها تأثير في النظر إلى المرأة؟ وما دورها في علاقات العشق: أهي عاشقة أم معشوقة؟ وهل في مقدرتها التعبير عن مشاعرها؟ وما هي الصورة التي ظهرت فيها المرأة في الطوق وكذلك المصارع ؟ وما مستوى ظهورها ؟وما مدى سعة ظهورها في مشاهد العشق؟ وهل احتلت مكانها سيده محترمة ذات مكانة في

* مدرس الدراسات الأدبية.

قصر الخلافة أم كانت جارية ؟ وهل تمتعت المرأة في المشرق وبلاد الأندلس بمكانة اجتماعية وثقافية واقتصادية .

الكلمات المفتاحية: طوق الحمامة، مصارع العشاق، الحب العذري، الأدب المكشوف.

مقدمة

لقد نشأ العربي على تقدير المرأة وتكريمها فهي شرفه الذي يزود عنه، ولقد شكلت المرأة عقب الحقب التاريخية المختلفة عنصرًا فاعلًا له مكانته وأدواره سواء أكان ذلك على الصعيد الاجتماعي أم الثقافي أم السياسي أم الاقتصادي؛ وبما أن الأدب مرآة تعكس الحياة الاجتماعية والفكرية للعصر؛ فالحياة الاجتماعية مرتبطة إلى حد كبير بالحياة الأدبية، بل إن الحياة الاجتماعية تنعكس في أدب العصر وتتفاعل معه، وكذلك الأديب الذي يعيش فيه قد يتأثر تأثرًا شديدًا بالحياة من حوله ،ولم يكن الأدب العربي بعيدًا عن نظرة الأديب إلى مجتمعة؛ إذ ابتدأت النظرة إلى المجتمع العربي مبكرة، فقد كان الأديب العربي ينظر إلى مجتمعة نظرة فاحصة ناقدة ترينا آثارهم ؛موقفهم من مجتمعهم بشكل واضح.

فإذا حاولنا التعامل مع التراث العربي؛ فهذا يستدعي منا لزاماً التعلّق بهذا التراث في أفكاره ومضامينه ولغته، من خلال المصادر القديمة التي فرضت نفسها على الذّوق العام، فعلى تعدد هذه المؤلفات الأدبية واختلاف مشاربها، نجدها تحمل في سيرورتها الإنتاجية أخباراً تناقلها أدباء اجتهدوا فيها على جمع أخبارٍ وقصص وأشعار كثيرًا ما كانت تلتقي في تيمة واحدة أو موضوع واحد،

فتنشأ بينها ضروب من العلاقات، تمنحها سماتٍ عدة ؛مما يتيح للدارس إمكانية الموازنة بينها قصد الوصول إلى بعض سمات عصر من العصور، ومما لا شك فيه أن الدارس للموروث العربي في اللّحظة الراهنة تعتريه حيرةٌ وتردد وهو يعتزم إنجاز بحثٍ حول النّص العربي القديم؛ بسبب الكم الهائل من الدراسات التي أُنجِزت حوله قديمًا وحديثًا؛ فعلى سبيل المثال هناك دراسات سابقة تناولت كتاب طوق الحمامة لابن حزم ، وكذلك مصارع العشاق لابن السراج ومن هذه الدراسات ما يلي:

أ- **بعض الدراسات التي تناولت كتاب طوق الحمامة لابن حزم :**

١- د. الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ١٩٩٢م.

٢- نجمة عبد الله إدريس ، طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي خطاب في الأدب أم خطاب في الثقافة ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد (١٢٥)،٢٠٠٧م.

٣-دانا عبد اللطيف سليم حمودة، شعرية النثر طوق الحمامة أنموذجا، كلية الآداب والعلوم، جامعة الشرق الأوسط ،ماجستير ، ٢٠١١م -٢٠١٢م.

٤- أزهار علي ياسين، السيمياء اللغوية- المقاربات والرؤى - قِراءة في كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، كلية الآداب/ جامعة البصرة ،مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، مجلد ١ عدد (٣٢)، ٢٠١٨م.

ب- بعض الدراسات التي تناولت كتاب مصارع العشاق لابن السراج:

١- عدنان محمد أحمد - نظرات في كتاب مصارع العشّاق لابن السراج البغدادي ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، العدد(٧٣) ،تشرين الأول،١٩٩٨م.

٢- مي أحمد يوسف، الحكاية العشقية في مصارع العشاق "حكاية جناية السبع على العاشقين "، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، العدد ،١مجلد (٣٠)، ٢٠٠٣م.

٣- خيرات حمد فلاح الرشود، كتاب مصارع العشاق للسراج القَارئ: دراسة سيميائية، دكتوراه ، كلية الآداب جامعة اليرموك،٢٠١٠م-٢٠١١م .

ولا شك بأن لدى هذه الدراسات لفتات قيمة ستفيد منها الدراسة الحالية ،والتي تحاول فيها الباحثة الغوص في أعماق الذاكرة العشقية العربية التي استحقت عن جدارة مثل هذا الاحتفاء عبر التاريخ سواء في كتاب طوق الحمامة أم مصارع العشاق، تلك الكتب التراثية التي لحت ولازالت تلح علينا في القراءة ومعاودة القراءة. ولقد حاولت الباحثة أن تستشرف مكانة المرأة العربية المسلمة من خلال مكانة المرأة في طوق الحمامة ،ومصارع العشاق؛ وذلك لإماطة اللثام عن أحوالها من خلال ما حفظته ذاكرة الأمة، ونحاول من خلال هذه الدراسة البحث في واقعها من خلال كتاب الطوق والمصارع ،حيث يأتي الحديث فيهما عن المرأة بوصفها طرفًا في القضية العشقية ؛وذلك من خلال دراسة وضع المرأة الأندلسية ويمثله كتاب طوق الحمامة، مقارنة بنظيرتها المشرقية ويمثلها كتاب مصارع العشاق لابن السراج، فهل كان اختلاف البيئة له أثر في اختلاف النظر إلى المرأة؟

حيث إن لمكان إبداع النص والقائه أثرًا كبيرًا في رسم معالم الإيحاء الفكري والاجتماعي والعاطفي عند مؤلف النص ومتلقيه على حد سواء؛ فـ" الأديب ابن بيئته" ،كما أن الأدب في تماس دائم مع الواقع الذي ينشأ فيه، " وإذا كانت مقدمات النصوص وعناوينها تعّد العتبات الأولى في شكل البنية النّصية، فإن

المكان والزمان يعّدان العتبة الأولى في تشكيل هذه البنية والضابط الخارجي في تكوين معالمها" (١) فما الصورة التي رسمها كل من ابن حزم وابن سراج للمرأة الأندلسية والمشرقية؟ وكيف كان ينظر كلاهما إليها؟ هل كانت البيئة لها تأثيرًا في النظر إلى المرأة؟ ولماذا تطرق كل من ابن حزم وابن السراج إلى تأليف هذا النوع من الكتب على الرغم من أنهما يعدان من الفقهاء؟

وقد آثرنا تساوقًا مع طبيعة موضوع البحث أن يكون منهج المعالجة قائمًا أساسًا على استلهام آليات منهجي التحليل التاريخي والموازنة، ففي الموازنة تتوهج خصائص الأشياء، وفي التحليل ندرك مدي قمتها وأصالتها، وكذا المنهج النفسي كلّما استدعى الأمر ذلك.

قد عرفت الثقافة العربية أشكالًا لا تحصى من قصص الحب، وتعددت مصادر دراسته، وتفسيره وسرد حكاياته في التراث العربي، واشتهر منها على سبيل المثال لا الحصر :(٢)

١-أبو بكر بن داود الأصفهاني(٢٩٦هـ) وله "كتاب الزهرة"

٢-أبو بكر بن جعفر الخرائطي السامرائي المتوفى سنة(٣٢٧هـ) له كتاب "اعتلال القلوب"

٣-أبو إسحاق إبراهيم بن علي تميم الحصري المتوفى سنة(٤٥٣)هـ وله كتاب " المصون في سر الهوى المكنون"

٤- ابن حزم الأندلسي(٤٥٦هـ) وكتابه " طوق الحمامة في الألفة والألاف "

٥-جعفر بن أحمد السراج المتوفى سنة (٥٠٠هـ) له كتاب "مصارع العشاق"

٦- أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى(٥٩٧هـ) له كتاب "ذم الهوى"

ونلاحظ من تلك المؤلفات اهتمام الفقهاء بتلك الظاهرة ،ومنهم على سبيل المثال ابن حزم الأندلسي الفقيه الظاهري في مؤلفه " طوق الحمامة"، وكذلك ابن السراج في مؤلفه " مصارع العشاق" ،فهل لهذا دلالة ؟! نستطيع القول إن اهتمام الفقهاء وعلماء الدين بموضوع الحبّ والمحبين إنّما كانت له أسبابه ودوافعه، وعلى رأسها الحرص الشديد على تحميل رسالة أخلاقية هادفة ؛عبر توظيف قصص العشق لتكون في خدمة المجتمع ذي العقيدة القوية، كما أن اهتمامهم بتلك الظاهرة كان يضاهي اهتمامهم بالعلاقات الاجتماعية الأخرى، وما يترتب عليها من حلال وحرام ، كعلاقة المرأة بالرجل وحدودها؛ فمن الطبيعي أن تلقى هذه المسؤولية على كاهل الفقهاء. وسوف نتناول هنا صورة المرأة من خلال طوق الحمامة وكذلك مصارع العشاق؛ لأنهما من بيئتين مختلفتين الأندلسية والمشرقية ، فهل أثرت البيئة في اختلاف صورة المرأة في الكتابين؟ خاصة أنّ الكتابين لفقيهين، وأنهما عاشا تقريبًا في فترة زمنية شبة متقاربة. وكيفية تناولهما لصورة المرأة ولاسيما قضية المرأة ومكانتها في المجتمع الأندلسي والمشرقي ، وموقفها ودورها في علاقات العشق: أهي عاشقة أم معشوقة؟ وهل في مقدرتها التعبير عن مشاعرها؟ وما هي الصورة التي ظهرت فيها المرأة في الطوق وكذلك المصارع ؟ وما مستوى ظهورها ؟وما مدى سعة ظهورها في مشاهد العشق؟ وهل احتلت مكانها سيدة محترمة ذات مكانة في قصر الخلافة أم كانت جارية ؟

أولا: صورة المرأة عند ابن حزم في الطوق:

أ- ابن حزم الأندلسي وكتابه طوق الحمامة:

هو:" أبو محمد على ابن أحمد بن سعيد بن حزم ولد بقرطبة ٣٨٤هـ من بلاد الأندلس بالجانب الشرقي في ربض منية المغيرة، بقصر أبيه القريب من مدينة

المنصور ابن أبي عامر الزهراء، وكانت وفاته سنة ٤٥٦هـ إذ دفن في قريته" [٣] ،"ينتمي إلى أسرة ذات عز ومال وجاه؛ فقد كانت لهم رياسة في الإدارة وتدبير الممالك "[٤]، يقول عبد الواحد المراكشي: " إن ابن حزم كان أكثر علماء الإسلام تصنيفًا، وإنه صنف في الفقه والحديث والأصول والنحل والممل، وغير ذلك من التاريخ والكتب والرد على المخالفين، له نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، وهذا شيء ما علمنه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله، إلاّ لابن جرير الطبري"[٥]، "وقد مر المنصور الموحدي ثالث خلفاء دولة الموحدين على قبره ،ووقف عليه بعد وفاته بمائة عام قائلا: كل العلماء عيال على ابن حزم". [٦] ،وكان لنشأة ابن حزم عميق الأثر في تشكيل شخصيته؛ لأنه استطاع الولوج إلى عالم النساء، ومعرفة أسرارهن ؛لأن البيئة النسوية التي نشأ في كنفها، عملت على إرهاف حسه، وإشعال وجدانه؛ فقد عرف عن نفسه بكونه خبيرًا لأنه تربى عند النساء؛ حيث يقول: " شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن ما لم يعلم غيري، إلا أني ربيت في حجورهنّ ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب ،وحين تفيل وجهي"،[٧]والنساء أيضًا كن يأنسن إليه، ولا يجدن حرجًا أن يفضين إليه بأحاديثه فيقول:" فلم أزل باحثًا عن أخبارهن، كاشفًا عن أسرارهن، وكن قد أنسن مني الكتمان، فكن يطلعنني على غوامض أمورهن " ،[٨] فقد عرف عن نفسه بكونه خبيرًا؛ لأنه تربى عند النساء ،وعرف أسرارهن فعلم تماما كيف تفكر المرأة وكيف تشعر؟

ب – الدلالة الرمزية للعنوان:

وعلى حد اعتبار أن " العنوان ذو موقع استراتيجي يشتغل بوصفه دليلا " signe[٩] ؛" فالعنوان شأنه شأن مختلف مكونات النص ليس مجرد تكملة أو

حيلة، بل هو من منظور بعض محللي الخطاب نقطة انطلاق كلّ تأويل للنص." [١٠] مما يعني أنه المحور الحقيقي الذي يحدد هوية النص، وهو الواجهة الطبيعية التي تعمل على جذب انتباه المتلقي، وما دام للعنوان في النص الأدبي هذه الأهمية؛ فإن ما يأتي تحته لابد أن يكون دالًا عليه ومؤسسًا له. وعن عنوان مدونتنا – موضوع الدراسة – يمكننا القول إنّ العنوان الذي منحه ابن حزم يحمل عدة دلالات كالتالي:

فالطوق لغة : يحمل معنى الزينة والجمال وهو: " حلي تجعله المرأة في العنق، وكل شيء استدار فهو طوق، تطوق الرحى، فالطوق ما استدار بالشيء وجمعه: أطواق، كطوق الرحى الذي يدير القطب ونحو ذلك .والطوق: واحد الأطواق، والمطوقة : الحمامة التي في عنقها طوق. والمطوق من الحمام: ما كان له طوق".([١١]) إذا فالعنوان هنا يوحي بتشابه الحب والطوق، فكلاهما مبعث للجمال، وقد ارتبط بالحب، الذي هو ملازم كالطوق في أعناق المحبين فحالهم كحال الحمامة، وما تطوقت به، فلا يمكنهم التخلي عن حبهم تشبيهًا بطوق الحمامة فلا يمكنها إزالته. يقول الثعالبي:" طوق الحمامة يضرب مثلًا لما يلزم ولا يبرح ويقيم ويستديم."[١٢]لذلك نجد أن الطوق يحمل بعدين: بعدًا إيجابيًا جماليًا، وبعدًا سلبيًا فيه نوع من الأسر والقيد، وقد يراد بالطوق (القيد)؛ لأن الحب أغلال وقيود بين المحبين فيما بينهم؛ نظرًا لما قطعوه علي أنفسهم من عهود أشبه بالقيد، وكأن ابن حزم يلمح بهذا العنوان إلي حقيقة نفسية وهي ضرورة العاطفة في حياة المرأة؛ وكأني بابن حزم يقول، هذا كتاب يتحدث عن العلاقة السرية بين الجمال والحب، أو هذا الكتاب أهميته بين الكتب كطوق

الحمامة بالنسبة إلى الحمامة. وعند هذا الحد يقول الثعالبي :"إن الحمامة إّنما أعطيت طوقها من حسن الدلالة والطاعة". (١٣)

أما رمز الحمامة :

فقد" ارتبط رمز الحمامة بالسلامة منذ مشهد سفينة نوح حيث كانت الحمامة الممسكة بمنقارها غصن الزيتون رسول السلام ،وعرفت هذه الرمزية في عصرنا خطأ كبيرًا، يكفي الإشارة إلى حمامة " بيكاسو" والإعلانات والطوابع البريدية، وأخيرًا أنصار السلام من هذه البلاد أو تلك الذين يسمونها " الحمائم " بمقابل الصقور الأكثر شراسة "(١٤)

لكن هل استخدم ابن حزم الحمامة قاصدًا رمز السلام ؟

أراد ابن حزم أن يكون كتابه خالدًا منتقلًا من زمن لآخر، ويرحل من مكان لآخر مع رحيل الحمام؛ ليبقى متداولًا عبر العصور؛ فيكون كالطوق الذي تجمل العنق. حيث إن ابن حزم في هذا المؤلف يستقرئ وقائع، ويقرر حقائق، ويستنتج قواعد من هذه الحقائق التي يعايشها، وهي طريقة عمله التي درج عليها في هذا الكتاب .

جـ – سبب تأليف الكتاب:

أما عن سبب تأليف الكتاب؛ فقد عزا ذلك إلى دعوة من صديقه يقول: في مقدمة رسالته:" وكلفتني أعّزك الله أن أصّنف لك رسالةً في صفة الحب وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة " (١٥) ، وإن كان العنوان الذي اختاره في الألفة والألاف، يعني أّنه تجاوز في رسالته ما كلفه به صديقه؛ لأن الألفة كلمة أعّم من الحب، وهي قريبة من الحديث الشريف "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"(١٦).

د – وضع المرأة في الأندلس في القرن الخامس الهجري:

في الأندلس كان للمرأة مكانتها، شأنها شأن الرجل بلا أي تفاوت من الناحية الإنسانية، وذلك في حدود ما أوجبه الإسلام، على أساس طبيعة المرأة وفطرتها ،حيث يقول ابن بشكوال : "احتلت المرأة منزلة عظيمة ونالت حظًّا وافرًا من التعليم، ونبغت في العلوم والآداب والفنون كثيرات، قيل أن مئة وسبعين امرأة بضاحية قرطبة الشرقية ،كن يعملن يوميًا في نقل نسخ من القرآن الكريم بالخط الكوفي، وأن إشراق العروضية كانت تحفظ (الكامل) للمبرد و(النوادر) للقالي"،[١٧] ويقول أيضًا: " كانت المكتبة تسير على نظام دقيق وراقٍ للغاية، وتضم أقسامًا مختلفة، أحدها للنسخ، ويعمل فيه مهرة الخطاطين، من فتيان وفتيات، واشتهرت بينهن لبنى كاتبة الخليفة نفسه، وكانت أديبة نحوية وعروضية، رائعة الخط بصيرة بالحساب، ولم يكن في قصر الخلافة أنبل منها. وتميزت بينهن أيضًا فاطمة بنت زكرياء بن عبد الله الكاتب المعروف بالشبلاري، وكانت كاتبة جزلة وخطّاطة ماهرة، وعمرت طويلًا، فعاشت أربعة وتسعين عامًا، كتبت فيه مئات الكتب الطوال" [١٨]،إذن لقد تمتعت المرأة في المجتمع الأندلسي بنصيب وافر من الحرية ،ونالت جانبًا من التعليم؛ مما مكنها من رفد الحياة الثقافية في الأندلس بإسهامات سواء في المجالات التعليمية أم الدينية أم الأدبية. والسؤال الذي يفرض نفسه علينا هو بماذا تحدثنا نصوص طوق الحمامة عن المرأة؟

يمكن رصد عدد من الأنماط التي تكون بمثابة نماذج حصرها لا يعنى تحديدها إذ تتوازى صعوبة الإحاطة بها مع صعوبة الإحاطة بقضايا المرأة العربية ذاتها، فالأمر في النهاية يتوقف على عدد من النماذج الدالة التي تكون بمثابة عينة

نستكشف من خلالها صورة المرأة في المجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ووضع المرأة في قرطبة تحديدًا، إذ يمكن استنتاج طبيعة حياتها ووظيفتها، وأبعاد الحرية التي تتمتع بها، ونظرة ابن حزم الفقيه لها.

هـ- صورة المرأة المعنوية والحسية في الطوق :

لقد شكلت المرأة عنصرًا رئيسًا في بناء النص من خلال أدوارها وأوضاعها الاجتماعية المختلفة، وما فرضته طبيعة المجتمع من تقسيم لهن على حرائر وجوارٍ، كما صورت عوالم المرأة من مجون وعفة ووفاء وغدر، وما أقامته من علاقات مع الآخر سواء أكانت تلك العلاقات حسية، لا هم لها سوى الجسد، أم أنها تسمو بالروح بعيدًا عن ملذات الجسد/ الحب العذري، ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن الشخصية " مرآة قد تنعكس من خلال تركيبة الإنسان النفسية بما فيها من انفعالات وصراعات داخلية أو علاقات اجتماعية بما تفرزه من سلوك وتصرفات " (١٩) ، فهي "الوعاء الإنساني الذي تتم فيه التفاعلات بين أبعاد الإنسان المختلفة التي تحدد في ضوئها قوة خصائصه وكيفياته التي تؤثر في الآخرين، وتتحدد كذلك عملية التآلف والتنظيم بين جميع الأشكال المختلفة في السلوك الذي يمارسه الفرد سلبًا أو إيجابًا؛ لتمثل في النهاية الجوهر الإنساني ذاته " (٢٠) ، ولقد شكلت المرأة عنصرًا رئيسًا في بنية الطوق من خلال أدوارها وأوضاعها الاجتماعية المختلفة حيث تبرز طبقتان داخل نسق الحياة العربية في الأندلس للمرأة حيث المرأة الحرة والجارية، وإن كان كلتاهما يطلق عليه لفظ جارية، والجارية في لسان العرب "هي الفتية من النساء بيِّنةُ الجراية، الجراء والجرين أي الصبا" (٢١)،إن المتتبع لصورة المرأة في الطوق يلاحظ شيوع كلمة جارية والجواري كن على نوعين، جوار تجري عليهن أحوال البيع والشراء ،ولقد

امتلأت البيوت في هذا العصر بالجواري من كل جنس، وكثر المتاجرون بهن والقائمون علي تعليمهن لتزداد في عين المشتري جمالًا وتزداد في يدي البائع قيمة؛ حيث تُمثّل شخصية الجارية واحدة من أهم الشخصيات الفاعلة عبر قصص المدونة ،حضورها في الغالب يسجل من خلال جملةٍ تتكرر على نحو الصيغة (وكانت له جارية ..) . و لو أمعنا النظر في هذه الجملة؛ لتبين لنا للوهلة الأولى أنّها بمثابة الإعلان عن وجود هذا العنصر النسوي؛ كشخصية ضمن أحداث قصص المدونة وقد كان أكثر صور المرأة الموجودة في الطوق، صورة الجارية التي تباع وتشترى، وإن كان ابن حزم في الطوق يعلى من شأن الجواري فقد ربينه وعلمنه؛ فيقول: " هن علمنني القرآن ورويننني كثيرًا من الأشعار ودربنني على الخط، ولم يكن وكدي وإعمال ذهني، منذ أول فهمي– وأنا في سن الطفولة جدًا– إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن، وتحصيل ذلك (٢٢)" .

أما النوع الثاني: فجوارٍ يشير جو الأحداث إلى أنهن حرات، وأن اللفظ صفة لهن، وأن المقصود بالجارية المرأة التي أشار إلى مركزها الاجتماعي بقوله :"وإنني لأعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد ،وقد بلغ بها حب فتى من أبناء إخواني من أبناء الكتاب مبلغ هيجان المرار الأسود"(٢٣)

أ– وقد وصف المرأة ببعض الصفات المعنوية سواء أكانت جارية أم حرة :

١ –صورة المرأة العفيفة :

وقد ظهرت هذه الصورة في الطوق بنسبة كبيرة ومنها قوله :" حدثتني امرأة أثق بها أنها علقها فتى مثلها في الجسم وعلقته، وشاع القول عليهما، فاجتمعا يومًا

خاليين فقال: هلمي نحقق ما يقال فينا فقالت : لا والله لا كان هذا أبدًا"(٢٤)؛ فقد أعطى ابن حزم صورة راقية للمرأة الأندلسية فهي على الرغم من أنها قد عشقت هذا الفتى وملك عليها لبها ؛إلا أنها أبت ألا تغضب ربها، ومنه أيضًا أنه أخبر عن نفسه بقوله : " وإني لأخبرك عني أني ألفت في أيام صباي – ألفة المحبة–جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عامًا، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مسبلة الستر"(٢٥)، وقد لعبت الكنايات دورًا هنا في إبراز صورة الرقي التي كانت عليها المرأة الأندلسية؛ إذ قال منيعة البذل كناية عن: الصون، هي فتاة مصونة لا تجعل من نفسها سلعة، بل هي صعبة المنال، كذلك استخدام عبارة" مسبلة الستر" كناية عن: العفاف فابن حزم عبر عن معان جميلة من خلال أسلوب الكناية، فهو هنا يعلى من شأن المرأة الأندلسية سواء الحرة أم الجارية ،والتي لا ترضى بغير ما يرضي ربها بعيدًا عن شهوات الجسد، وفى هذا مخالف لما ذكره د. مصطفى عبد الواحد حيث يرى: " أن ابن حزم جرد المرأة من كثير من الخيالات التي تحيط بها من الأدب وأغرى بتتبع المرأة وإحكام الرقابة عليها ،وحذر منها ومن كيدها، وأوحى بالاحتراز منها والاحتياط " (٢٦)

وكيف ذلك؟! وهو قد تربي ونشأ على أيديهن واعترف بفضلهن عليه؛ ففي الطوق تذكيرًا وتأكيدًا لثقافة الحب العذري المتمسك بتعاليم الإسلام، بعيدًا عن ثقافة الجسد. وقد أورد ابن حزم في قصة مع الرمادي قصة الرمادي والجارية المتعففة التي طلب الرمادي مواعداتها فاختفت وكأن الأرض ابتلعتها(٢٧) وأمثلة ذلك في باب (من أحب من نظره واحدة) (٢٨) ، وكذلك قصة الجارية الأديبة

التي أحبت شخص ما ،فلما طلب منها ما يغضب الله قالت والله لأفضحنك فضيحة مستورة(٢٩) ، وقد صدقت، وسنذكرها بالتفصيل فيما بعد من هذا المبحث. والحق أن ابن حزم حين كشف الحّب، فأنه لم ينس أن يتخذ من هذه الدراسة وسيلة للحث على الفضيلة، والابتعاد عن قبح المعصية ؛ يتضح ذلك في أكثر من جوانب الكتاب، وخاصة البابين الأخيرين من الرسالة وهما بعنوان (باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف) وهنا قد أضاف إلى تحليلاته النفسية ،نصائح أخلاقية قيمة، توج بها رسالته في الحب؛ حيث نراه خبيرًا بعالم النساء؛ عندما يتحدث عن المرأة الفاسدة والصالحة ويقدم تفسيرًا جيدًا لذلك ولم لا؟! وهو الذي أخذ منهن مختلف العلوم، وتربى في حجورهن، ففي باب الكلام في قبح المعصية يقول " : والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت، والفاسدة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل....(٣٠)"

٢ –صورة الزوجة الوفية:

ويظهر في الطوق هذا النمط من النساء في أكثر من موضع ،منه حديثه عن أخيه أبي بكر وزوجته في خبر عاتكة بنت قند ووفائها لزوجها بعد وفاته إلى أن توفيت، يقول:"...إلى أن توفي أخي رحمه الله في الطاعون الواقع بقرطبة....فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل، والمرض الذبول، إلى أن ماتت بعده بعام ،في اليوم الذي أكمل هو فيه تحت الأرض عامًا. وقد أخبرتني عنها أمها، وجميع جواريها؛ أنها كانت تقول بعده : ما يقوي صبري، ويمسك رمقي في الدنيا – ساعة واحدة بعد وفاته– إلا سروري وتيقني أنه لا يضمه

وامرأة مضجع أبدًا..."(٣١)، ومنه أيضًا حديثة عن المرأة التي مات زوجها وتدثرت معه في ثوب واحد ليلة موته(٣٢) فعلى الرغم من وفاة زوجها إلا أن قلبها بقى أسيرًا عنده.

٣ –صورة المرأة المساعدة لإخوانها :

وهذه الصورة أيضًا موجودة في الطوق ؛حيث تجد المرأة المسنة ذات العكاكيز تعمل سفيرة حب؛ فتسعى إلى التوفيق بين المتحابين، وعقد الصلة بينهما يقول :"وما أكثر هذا في النساء، ولاسيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثوبين الأحمرين♣"(٣٣).، ويقول أيضاً:" وما رأيت الإسعاد♥ أكثر منه في النساء ، فعندهن من المحافظة على هذا الشأن، والتواصي بكتمانه ، والتواطىء على طيه –إذا اطلعن عليه– ما ليس عند الرجال" (٣٤) ، ويرى أن هذه الصفة في النساء أكثر منها في الرجال، ومن ذلك أيضًا الخبر التالي يقول:" وإني لأعلم امرأة جليلة، حافظة لكتاب الله ناسكة ،مقبلة على الخير، وقد ظفرت بكتاب الفتى إلى جارية كان يكلف بها، وكانت في غير ملكها فعرفته لأمر فرام الإنكار فلم يتهيأ له ذلك ، فقالت له : مالك ؟ ومن ذا عصم ؟ فلا تبالي فو الله لا أطلعت على سركم أحدًا ، ولو أمكنني أن أبتاعها لك لفعلت"(٣٥)

٤ –صورة المرأة العاشقة :

وتظهر في الطوق صورة هذه المرأة ؛ حيث يصورها وقد وصلت في مرحلة العشق إلى غياب الذهن، يقول:" حدثتني امرأة أثق بها أنها شاهدت فتى وجارية كان يجد كل منهما بصاحبه فضل وجد، وقد اجتمعا في مكان على طرب ،وفي يد الفتى سكين يقطع بها الفاكهة ... وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية– لها قيمة– فصرفت يدها وخرقتها وأخرجت منها فضلة شد بها إبهامه"(٣٦)،في

هذا الخبر طغيان لضمير الغائب (هو ،هي)بحيث يهيمنان على السرد؛ وبذلك فهو يشكل مرآة صادقة لغياب ذهن العاشقين كما يظهر في الحكاية انشغال كل من المتحابين بالآخر، لدرجة أن العاشق غفل عن السكين وجرح إبهامه، أما هي فلم تأبه بغلالتها الثمينة؛ فخرقتها وأخرجت منها ما يلف به إبهام حبيبها ،وتظهر أيضًا المرأة العاشقة المبادرة بطلب الوصال ،كالجارية التي اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء وهو لا علم عنده، حتى ضاق صبرها فبادرت إليه وقبلته.(٣٧)،وهنا يدل على ما كانت تتمتع به المرأة الأندلسية من حرية، ولا تجد غضاضة في التعبير عن عواطفها لمن تحب؛ وذلك نتيجة الاختلاط بينهما.

٥ –صورة المرأة الأديبة:

وقد امتلئ الطوق بصورة تلك المرأة في أكثر من خبر، سواء أكانت جارية أم حرة؛ فقد اقتحمت المرأة في الطوق ميدان الشعر والأدب، وهذه صورة ليست بغريبة على المجتمع الأندلسي في تلك الفترة؛ فقد ساهمت البيئة الاندلسية المتفتحة في انتشار الاختلاط بين المرأة والرجل، واتاح لهن التعليم وانتشار دور الغناء والمغنيات؛ مما يستدعي حفظ كثير من الأشعار، وانتشار الصالونات الأدبية، ولم تقتصر هذه الظاهرة على فئة معينة من فئات المجتمع، ولم تستأثر بها فئة الأغنياء دون الفقراء، بل تعدتها إلى الجواري والإماء. فذكر من النساء أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح، كما ذكر المرأة المغنية التي كان لها في القلب منزلة كبيرة لولوع أهل الأندلس بالغناء وتعلمه. وبالعودة لكتاب الطوق نجد الكثير من النماذج الشعرية التي قيلت وتغزلت فيها، أو ما قالته هي مجسدة صورة الشاعرة الجريئة التي لا تكتف بالتلميح دون التصريح ،أو بالإشارة دون الإعلان عن تغزلها بالرجل وأخذها بزمام الأمور، ومن ذلك قوله:" ولقد أخبرني

ثقة من إخواني من أهل الفقه أنه أحب جارية نبيلة أديبة ذات جمال قال: فعرضت لها فنفرت، ثم عرضت فأبت فلم يزل الأمر يطول، وحبها يزيد وهي لا تطيع البتة، إلى أن حملني فرط حبي لها، إني متى نلت منها مرادي؛ أتوب إلى الله ،حتى إذ أذعنت بعد شماس ونفار. فقلت له : أبا فلان وفيت بعهدك؟ فقال: أي والله فضحكت"[٣٨]، ومنه الخبر الذي أورده عن فتى وجارية كانا يتحابان، فأرادها في بعض وصلها على بعض ما لا يحل " فقالت: والله لأشكونك في الملأ علانية، ولأفضحنك فضيحة مستورة ،فلما كان بعد أيام حضرت الجارية مجلس بعض أكابر الملوك ... فلما انتهى الغناء إليها، اندفعت تغني بأبيات قديمة، وهي من بحر الوافر:

غَزالُ قد حَكَى بَدْرَ التّمام كَشَمْسٍ قد تَجَلتْ في غَمَامِ
سَبى قَلْبي بِألحَاظٍ مِراضٍ وَقَدْ الغصن في حُسن القوامِ
خَضَعتُ خُضُوعَ صَبٌ مُسْتَكينٍ لَهُ وَذَلِلْتُ ذِلّةَ مُسْتَهامِ
فَصِلْنِي فَدَيْتُك في حَلَالٍ فَمَا أَهْوَى وِصَالاً في حَرَامِ[٣٩]

إذن فالمرأة الأندلسية كانت تتمتع بقدر من الحرية لابأس بها، كما أن المرأة في الطبقة العليا كانت تحسن الموسيقى، وتعزف ألوانًا مختلفة، وتجيد الغناء في ألحان تصنعها أو تصنع لها .

٦- صورة غدر الجارية :

وتظهر صورة المرأة الغادرة في الطوق وهي قليلة جدًا ،فلم تظهر سوى مرة واحدة حين تحدث عن غدر جارية بمحبوبها فقال:" ولعهدي برجل من صفوة إخواني قد علق بجارية فتأكد الود بينهما، ثم غدرت بعهده، ونقضت وده وشاع خبرهما، فوجد لذلك وجدًا شديدًا."(٤٠)،كما ظهرت مرة ثانية ولكنها في صورة غدر

الجارية والوشاية بين العاشقين ؛فقد تحدث عن كيف كان موت مروان بن أحمد بن جدير، والذي كان معروفًا بحبه لامرأة جليلة القدر، سرية المنصب فغدرت بهما جاريته قطر الندى مما أدى إلى قتله وفي ذلك يقول ابن حزم :(٤١)

وهل يأمن النّسوانَ غَيرُ مغفّل جهولًا لأسبابِ الرّدى مُتَعرّضِ

وَكَمْ وَارِدٍ حَوضَاً من الموت أسودًا تَرْشَفَه من طَيبِ الطّعْم أبْيضِ

٧-صورة المرأة التي تفعل بعض العلاقات المحرمة:

ومن ذلك عشق رجل لجارية ممنوعا عنها ،فأمطرت السماء يقول :" ...فأمر عمي ببعض الأغطية فألقي على، وأمرها بالاكتنان معي، فظن بما شئت من التمكن على أعين الملأ وهم لا يشعرون،..."(٤٢)،وقد قدم ابن حزم هذه الصورة عن طريق الوصف الجامد، بعيدًا عن الوصف الحسي الذي يثير المشاعر محافظة على الأخلاق. ولكننا نجد صورًا أكثر فحشًا في الطوق ويعبر عنها ابن حزم تعبيرًا يخدش الحياء، كنوع من الأدب المكشوف ،تظهر من خلاله بعض من العلاقات المحرمة في تلك الفترة(٤٣).

ب- الصفات الحسية والمظهر الخارجي للمرأة في الطوق:

ولو رجعنا إلى الطوق لوجدناه ممتلئ بالصفات الحسية للمرأة من بياض البشرة ،واسترسال الشعر وشقرته ،وتلوين العيون وتظهر لنا في هذا صفات المرأة الأوربية؛ ولا عجب في ذلك فهي في أغلب صفات الجيل الأندلسي المولد، يقول ابن حزم في الطوق:" وأما جماعة خلفاء بنى مروان – رحمهم الله – ولاسيما ولد الناصر منهم، فكلهم مجبول على تفضيل الشقراء، لا يختلف في ذلك منهم مختلف ،وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر إلى الآن، فما منهم إلا أشقر، نزاعًا إلى أمهاتهم حتى صار ذلك فيهم خلقة " (٤٤)،وأيضًا "

ما عُرف عن الإسبانيات والبربريات من جمال وبياض بشرة، واصفرار شعر، وزرقة عيون؛ وهي صفات يحبها العربي كثيرًا لأنها جديدة عليه"[٤٥]، لعل أفضل مصدر يصف لنا المرأة في الأندلس ،ما وجدناه في الإحاطة من وصف لسان الدين بن الخطيب للنساء الغرناطيات وهو –كما نعتقد –وصف ينسحب على معظم نساء بلاد الأندلس يقول:" وحريمهم حريم جميل موصوف بالسحر، وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة إلا أن الطول يندر فيهن، وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات، والتنفيس بالذهبيات والديباجات، والتماجن في أشكال الحلي إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها"[٤٦]، ويخبرنا ابن حزم عن نفسه أنه: "أحب في صباه جارية له شقراء الشعر، فما استحسن في ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو كانت على صورة الحسن نفسه"[٤٧]،وهو هنا يسهم في بناء صورة وصفية عن المرأة من خلال إبراز الملامح الشكلية والنفسية لها؛ كما يحدثنا في كتابه في باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها، فيكاد ينص على ما اصطلح عليه علماء التحليل النفسي، اليوم على تسميته باسم، التثبيت "FIXATION"[٤٨]،وهو عبارة عن ارتباط المرء في صباه بشخص أو شيء ارتباطًا وثيقًا، بحيث يدوم هذا الارتباط، حتى بعد انتقاله إلى مرحلة النضج النفسي أو البلوغ العاطفي، يقول:" وإني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص♣، فما استحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك ، وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر، فما أحب جارية طويلة بعد هذا، وأعرف أيضًا من هوى جارية في فمها فوه♥ لطيف؛ فقد كان يتقذر من كل فم صغير ويذمه،

ويكرهه الكراهية الصحيحة"[٤٩]. وكيف لا؟! والأمر نفسه وقع مع صاحب الرسالة ذاته فقد أخبر عن نفسه بذلك .

وإذا ذهبنا لنتعرف على زينة المرأة كما جاءت في الطوق؛ فيبدو أن أناقتها خضعت للمستوى الحضاري الذي عرفته الأندلس بالإضافة إلى حالتها الاجتماعية ومستواها المعيشي، حيث نجده يتحدث عن زينة المرأة من حيث الزي والملبس ووضع الأصباغ والحلى؛ فقد أشار ابن حزم إلى جارية كانت ترتدي رداءً حريرياً له قيمة[٥٠].

ولأهمية العين في التعبير عن المشاعر، ومعرفة مدى استجابة المحب لذلك؛ يمتلئ الطوق بأخبار كثيرة عنها، بل ويشرح كل إشارة وما تعنيه بالمقابل، وكيف لا؟! وهو القائل :"" وأعلم أن العين تنوب عن الرسل، ويدرك بها المراد، والحواس الأربع أبواب إلى القلب، ومنافذ نحو النفس."[٥١] وقد تحدث في الطوق عن أثر النظرة الأولى وما تفعله في قلب العاشق ، بل ولديه أمثلة كثيرة على التغزل بالعيون الزرق وربما هذا نتيجة التأثر بالعامل الأجنبي الذي كان في المجتمع آنذاك.

كذلك نجد ابن حزم يهتم بتحليل سلوك المرأة تحليلًا نفسيًا حيث لاحظ اختلاف سلوك المرأة عن عادتها الطبيعية إذا أحست برجل يسمعها أو يراها ويعبر عن ذلك بقوله :" وشيء أصفه لك تراه عيانًا: هو إني ما رأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلًا يراها، أو يسمع حسها؛ إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غنية، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك؛ ورأيت التهمم لمخارج لفظها ،وهيئة تقلبها لائحًا فيها ظاهرًا عليها لا خفاء به"(٥٢)، وابن حزم يحلل هذا السلوك ويرده لأسباب نفسية ترجع لطبيعة المرأة؛

وهي علي حد تعبيره " التحيل لاستجلاب الهوى "، وحرصها عليه، ودلل علي صواب تحليله لسلوك النساء؛ بأنه " لولا علم الله –عز وجل –برقة إغماضهن في السعي لإيصال حبهن إلي القلوب، ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوي، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى".(٥٣)

جـ- المكانة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمرأة في الطوق:

إذا تصفحنا الطوق فسوف تظهر لنا الأدوار التي كانت للمرأة الأندلسية في ذلك العصر سواء أكان اقتصاديًا أم اجتماعيًا أم ثقافيًا، فقد عرف ابن حزم عن دور المرأة وأنشطتها في ذلك ؛فقد أشار إلى بعض المهن والصناعات التي كانت تشغلها المرأة الأندلسية مثل: المدرسة والمربية لأبناء الفئات العليا والطبيبة والحجامة والدلالة والماشطة والمغنية وصانعة الغزل(٥٤)،ومن الواضح أن المجتمع الأندلسي لم يمانع من عمل المرأة، أيضًا يتضح في الطوق المكانة الاقتصادية التي بلغتها المرأة في حديثه عن إحداهن واصفًا إياها بالموسرة وذات جوار وخدم(٥٥)، وكذلك حديثه عن المرأة المنفقة أموالها في وجوه البر والإحسان؛ ليستفيد منها ذوي الحاجات، وتسهم في المجتمع مثل تزويج يتيمة، وإعارة حليها وثيابها لعروس مقلة، يقول: "وأنك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال؛ وأحب أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها، سعيها في تزويج يتيمة، وإعارة حليها وثيابها لعروس مقلة"(٥٦)، ومنه قوله:" وإني لأعرف امرأة سرية النشأة ،عالية المنصب، غليظة الحجاب"(٥٧)، كذلك تظهر في الطوق النساء الثريات اللاّتي تتميز أملاكهن عن أملاك أزواجهن ويدرنها لحسابهن؛ وفي هذا دليل على المكانة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت عليه

المرأة في قرطبة وقتذاك، ومن المظاهر التي تجسد الدور الاجتماعي للمرأة الأندلسية في الطوق؛ تلك الحرية التي تمتعن بها في قرطبة في تلك الفترة؛ ويتضح ذلك من حديثه عن المرأة صاحبة القرار في زواجها ومن ذلك جارية سعيد ابن المنذر، وخلاصته أنه أسر إليها أن يطلق سراحها ليتزوجها فطاوعته على أن يخفف من لحيته، فلما فعل ودعا وجهاء القوم؛ ليشهدوا حريتها وزواجه منها ،فما أن شهد بحريتها حتى صرخت برفض الزواج منه(٥٨) ، وتتضح أيضًا المكانة الاجتماعية للمرأة في تلك الفترة والحرية التي كانت تتمتع بها في خروجها للمنتزهات والأسواق، حيث عرف باب العطارين بقرطبة أنه مكان تجمع للنساء*(٥٩) ، ولا يعني حديثنا هنا عن تلك الحرية التي كانت ممنوحة للمرأة الأندلسية أنها بلا قيود خاصة في الطبقة العليا، فقد صور الطوق تلك القيود التي كانت عليها بعض البيوتات العالية يقول : "... وأكثر ما يقع هذا في ربات القصور المحجوبات – من أهل البيوتات– مع أقاربهن الرجال"(٦٠) ومنه أيضًا المحافظة على العادات العربية المشرقية ؛ويتضح ذلك من خلال الخبر التالي يقول:" وقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعرًا تغزل فيه بصبح أم المؤيد– رحمها الله– فغنت به جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبي عامر ليبتاعها، فأمر بقتلها ،وعلى مثل هذا قتل أحمد بن مغيث واستئصال آل مغيث ... وكان سبب ذلك تغزله بإحدى بنات الخلفاء، ومثل هذا كثير."(٦١)ومن خلال تلك المشاهد الموجودة بالطوق يتضح وضع المرأة الاجتماعي في قرطبة وقتذاك، أما عن الوضع الثقافي للمرأة في الأندلس كما تظهر من خلال الطوق ،فقد كانت هناك المرأة الأديبة والتي تحدث عنها كثيرًا في ثنايا كتابه، وسبق حديثنا عنها هنا حيث يظهر لنا العنصر النسوي؛ وقد نال قسطًا لا بأس به من التعليم والثقافة

أسهم من خلاله في الحراك الثقافي آنذاك، فلم تظهر المرأة في الطوق وقد خاضت مجال الشعر والأدب فقط بل كانت هناك الحافظات للفقه، ولعلم القراءات، ومن ذلك حديثه عن المرأة التي كانت حافظة لكتاب الله ناسكه[٦٢] ، كما ظهر لنا المرأة الشاعرة سواء أكانت حرة أم جارية، وقد أدى شيوع الغناء إلى خوض المرأة المجال الأدبي، مما يستدعي حفظ الكثير من الأشعار، وانتشار الصالونات الأدبية، واختلاط النساء بالرجال، ففي هذا الجو المشحون بالازدهار الفكري والأدبي والتسامح الديني والاجتماعي؛ أدى إلى نهضة المرأة واتساع ثقافتها، ومما سبق يتضح لنا الصورة التي كانت عليها المرأة الأندلسية، كما أظهرها ابن حزم في الطوق.

وفيما يلي سوف نتحدث عن صورة المرأة في كتاب مصارع العشاق لابن السراج.

ثانياً ابن السراج وكتابه مصارع العشاق:

هو "جعفر بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن جعفر السراج المعروف بالقارئ البغدادي[٦٣]" ،ويروي الحموي عن أبي محمد عبد العزيز بن الأخضر قوله : " سمعتُ أبا الكرم المبارك بن الحسين بن الشهرزوري المقرئ يقول : كنتُ أقرأ على أبي محمد جعفر بن محمد السراج وأسمع منه، فضاق صدري منه لحاله، فانقطعتُ عنه، ثم ندِمتُ وقلتُ : يفوتني منه بانقطاعي عنه فوائد كثيرة ، فقصدته في مسجده المعلّق، الحاذي لباب النوبي، فلما وقع نظره علي رحب بي وأنشدني لنفسه: [٦٤]

وَعَدتِ بأن تَزوري بَعْد شَهْرٍ فَزُورِي قَدْ تَقَضى الشهر زوري

وموعد بيننا نهر المعلَّى إلى البلد المسمى شهر زوري
فأشهر صدكِ المحتومِ حقٌّ ولكن شهر وصولكِ شهر زور

نشأ ابن السراج في بغداد حاضرة الدولة الإسلامية الكبرى، إذ كانت ولادته سنة سبع عشرة وأربعمائة للهجرة على الأرجح ، وبعضهم يزيد على التاريخ المذكور عامًا أو ينقص منه عامًا، أما وفاته فكانت سنة خمسمائة للهجرة ، وقيل في بعض المصادر توفي ليلة الأحد الحادي عشر من صفر، كما قيل أيضًا في الحادي والعشرين من نفس الشهر، حيث دفن بمقبرة باب أبرز .[٦٥]، ومعنى هذا أن عمره عند وفاته كان أكثر من اثنين وثمانين عامًا، مما يؤكّد أنّه شهد حضارة العرب الزاهرة في القرن الخامس هجري، وعاصر التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية، وما آلت إليه حياة العرب والمسلمين في ظلال الدولة العباسية. إن ما اجتمع من أخبار ابن السراج ،وما ذُكر عنه؛ ليدلُّ دلالة لا جدال فيها على أنّه عالم وأديب وشاعر جدير بالدراسة والتقييم ؛" فعلى الرغم من أن المصادر الأدبية لم تحمل عنه الكثير من الأخبار فيما يتعلّق بتفاصيل حياته ونشأته وأهله إلى غير ذلك، إلاّ أن تلك الإشارات اليسيرة والموجزة عنه إنّما تُجمع جميعها على أن هذا الرجل هو أحد محبي العلم والأدب، كان ثقةً أفادته أسفاره في تكوين ثقافته الواسعة ؛التي مكّنته من التأليف وأهلته للشّهرة "[٦٦] ،وإذا كانت روح العصر من الأسس القوية في تكوين الشخصية، فإن روح العصر هذه كان لا بد لها من مواهب تشدو بها وتصورها؛ وقد استجابت نفوس كثيرة لهذه الروح من بينها نفس ابن السراج ، " فالخصوبة المعرفية للقرن الخامس هجري الذي نشأ فيه ابن السراج شكّلت حالةً من القطاف الحضاري الحقيقي وصلت حد الإندغام العربي بمعطى الحضارات الإنسانية كافة، والتي

استطاع خلالها العرب صهر مكتسباتهم الحضارية والمعرفية من المنجز الحضاري الإنساني في بوتقتهم[٦٧]".

أ- **كتـاب " مصـارع العشـاق":**

يعد كتاب مصارع العشاق واحدًا من أهم الكتب التراثية التي جعلت من الحديث عن الحب والمحبين موضوعها الأساس، ولثراء الركائز العشقية التي اعتمد عليها ابن السراج في مؤلِفِهِ الذي يتميز بغزارة الكم ،وبحكايات عشقية قصيرة في الأغلب، إذ جمع من الروايات كل ما يتعلق بالعشاق الذين صرعهم الحب والوجد، وهي عبارة عن خليط يبدأ من العصر الجاهلي حتى العباسي " ولا مبالغة في القول بأن مصارع العشاق أهم مصدر لأخبار العشاق وقصصهم مهما اختلفت اتجاهات عشقهم " [٦٨]، كما أن الشخصيات فيه إنّما هي شخصيات وافدة من حقبات زمنية مختلفة ، فبعضها من زمن المؤلِّف، وبعضها الآخر من زمنٍ سابق العهد عنه كون رواياته خليط من جاهلي وإسلامي وأموي وعباسي، وهذا اللون من القصص يشكل ثيمة أساسية قد " ارتبطت بالموت العشقي والقدر المحتوم ارتباطاً وثيقاً"[٦٩]، وغريزة الموت هذه والتي "سماها فرويد اسم(اتوس Thantos).يطلق عليه أحيانا اسم غرائز التدمير"(٧٠) ،ولقد سار ابن السراج في كتابه على وتيرة واحدة من البداية حتى النهاية، إذ قسم الكتاب على اثنين وعشرين جزءًا ،وأودع في كل مجموعة منه أخبار العشاق التي تنتهي في أغلبها بإيراده للأشعار المتعلقة بها. لم يكن لابن سراج منهج ولا ترتيب في إيراد أخباره ربما تهربًا من ذكر الباعث من وراء التأليف؛ فلم يقدم للكتاب، ثم أنهاه دون أن يعقب بشيء[٧١] ، ولقد حرص ابن السراج على تحميل

مؤلَّفه هذا رسالةً أخلاقية؛ لاستنهاض القيم والمثُل العليا والدعوة للتحلي بالأخلاق الكريمة ، فجاءت قصصه من صميم الوعظ الديني الرامي إلى التمسك بالفضائل ومقاومة الشهوات.

ب – الدلالة الرمزية للعنوان:

ويظهر الإطار الدلالي للعنوان المؤلف من كلمتي (مصارع)، (والعشاق)؛ إذ تفتحان " أفق توقع خاص يعمل أساسًا على تحفيز اهتمام القارئ، وربطه بالسياق اللغوي"[٧٢])، فهو يتكون من جملةٍ اسمية ذات بنية خبرية وصفية ،وقد جاءت لفظة " مصارع " نكرة والتي اكتسبت التعريف من إضافتها إلى لفظة "العشاق "،والتي جاءت معرفة بـ (ال) لتدل على الثبات والاستمرار، وأل الجنسية هنا جاءت؛ لتعلن للمتلقي جنس الحديث الذي يتناوله ابن السراج في مدونته هو جنس " العشّاق الذين أضناهم الهوى وصرعهم العشق؛ دليل ذلك أن لفظة العشاق جاءت على صيغة المبالغة " فعال "لتدل على حجم العشق الذي اتصف به شخصيات تلك المدونة، " فالصلة بين العنوان والمضمون غير محسوسة تمامًا إلا للقارئ الذي يحاول أن يبحث عن انسجام النص. ولا يكتفي بالبحث عن اتساقه"[٧٣]،حيث يبدو عنوان " مصارع العشّاق " بمثابة مرآة عاكسة لِما موجود في ثنايا الكتاب، ومعنى هذا أن ما اختاره ابن السراج عنوانًا لمؤلَّفه يمثّل قراءة شخصية من قِبل المؤلِّف لنصه، كما يدل العنوان على حالة الانكسار والضعف الذي أصاب العربي نتيجة خذلانه من مجتمعه في عواطفه، في ظل الأعراف والتقاليد التي يهتم بها العربي ويقدمها على المشاعر والأحاسيس ، فكما يتصور فرويد أن" في ذوات كل إنسان رغبات مكبوتة تبحث دوما عن الإشباع ، وعندما تجابه هاته الرغبات من طرف

المجتمع بالرفض، تكبت في اللاشعور إلى أن تظهر على الواقع بأشكال، وكيفيات متعددة."[٧٤]، وبتقديمه للفظ مصارع على العشاق وذلك للفت انتباه المتلقي نحو القضية المتناولة في المدونة فالعشق في عرف هؤلاء إنّما " يزيل الثِقال، ويلطِّف الروح ،ويصفي كَدر القلوب، ويوجِب الارتياح لأفعال الكِرام، وهو لا يصلُح إلاّ لذي مروءة ظاهرة وخَليقَة طاهرة، أو لذي لسانٍ فاضل وإحسانٍ كامل، أو لذي أدبٍ بارع وحسبٍ ناصع"[٧٥] ؛ لذلك يمكننا القول إن كثرة القصص التي جمعها ابن السراج ،ووضعها في مدونته تلك على اختلاف قصص العشق فيها؛ إنّما له تفسير واحد هو الرغبة في دفع المتلقي للتمسك بمكارم الأخلاق، وأخذ العبرة من تلك القصص .

جـ- وضع المرأة في المشرق في القرن الخامس الهجري:

نالت المرأة في بغداد حظًا وفيرًا، وإبداعًا في كافة المجالات العلمية والثقافية ، شاركت المرأة الرجل – في العصر العباسي – في الحياة الثقافية، فكانت شاعرة وناثرة يشار إليها بالبنان، وقد برعت طائفة من النساء في قول الشعر من خلال موضوعاته المختلفة، سواء أكان ذلك على مستوى الحرائر أم الإماء، فقد تبوأت علية بنت المهدي مكانة لا تُضاهى في عالم الشعر، فقد كانت" لطيفة المعنى، رقيقة الشعر، حسنة مجاري الكلام"[٧٦]، أما الجارية عنان فكانت شاعرة متمكنة، ويكفيها أنها استطاعت أن تصور الحب، والعلاقة الودية مع الرجل؛ في مختلف الأحوال. ولو لم يكن لها سوى هذا البيت لكفى دلالة على مقدرتها الفنية. تقول: [٧٧]

وَيَبْكِي فَأَبْكِي رَحْمَةً لِبُكَـائِهِ إِذَا مَا بَكَى دَمْعَاً بَكَيْتُ لَهُ دَمَـا

وخلال هذه الفترة أيضاً أصبح لقب الكاتبة يرادف أسماء بعض النساء، أمثالُ " شهدة بنت أحمد بن الفرج فخر النساء ابنة البغدادي الكاتبة تـ (٥٧٤هـ /١١١٢م)"[٧٨] ،...الخ؛ إنّها الخصوبة المعرفية للقرن الخامس الهجري، والتي ما انفكّت تتبدى كاشفةً الحجب عن مستوى رفيع جدًا في كافة المسارات العلمية والثقافية التي خاضتها المرأة المشرقية ،وعرفها المجتمع وقتذاك.

د- صورة المرأة المعنوية والحسية في المصارع :

أ- وقد وصف المرأة ببعض الصفات المعنوية سواء أكانت جارية أم حرة :

تحظى المرأة بنصيب كبير في قصص المصارع؛ فهي من أهم الشخصيات الفاعلة عبر قصص المدونة سواء أكانت جارية أم حرة؛ لذلك نجد حضورها المميز في معظم القصص مما جعلنا نتساءل كيف كانت نظرة ابن السراج للمرأة؟ ، وما أهم صفاتها ؟ وهل اختلفت نظرته للحرة عن الجارية؟ وهل كان للبيئة تأثيرها على تلك المرأة؟ وكيف نظر هو كفقيه لها؟ وهذا ما سوف نتناوله في الصفحات التالية:

١-صورة **المرأة العالمة الفقيهة:**

تظهر في المصارع صورة المرأة العالمة الشيخة الفقيهة في أكثر من موضع في المدونة ،وذكر أنه قد أخذ عنهن الأخبار؛ مما يدل على المكانة العلمية التي كانت تتمتع بها المرأة في ذلك الوقت، يقول: "سمعت غفيرة العابدة تقول: بلغني أن معاذة العدوية، لما احتضرت، بكت ثم ضحكت، فقيل لها :بكيت ثم ضحكت ، فممّ البكاء وممّ الضحك ؟ رحمك الله ! قالت : أما البكاء، فإني والله ذكرت مفارقة الصلاة والصيام والذكر، فكان البكاء،.."[٧٩]، ومن ذلك أيضًا، أنه قد أخذ الأخبار عن الشيخة الجليلة فخر النساء شهدة بنت أحمد بن الفرج، ومنه أيضًا

قوله " ... سمعت مالك بن سعيد يقول : حدثني مشيخةٌ خُزاعة: أنّه كان عندهم بالطائف جارية متعبدة ذات يسارٍ وورع، وكانت لها أم أشد عبادة منها، وكانت مشهورة بالعبادة، وكانتا قليلتي المخالطة للناس"(٨٠).

٢- صورة المرأة العاشقة :

وللنساء حظهن في قصص المصارع من المكابدة وتجرُّع الآلام، مثلهن مثلُ الرجال تتساوى في ذلك الحرة والجارية، ومن ذلك قوله: " كان بالمدينة جارية ظريفة حاذقة بالغناء، فهويت فتى من قريش ، فكانت لا تُفارقه ولا يفارقها، فملها الفتى وتزايدت هي في محبته، وأسيفت، فغارت، فولهت، وجعل مولاها لا يعبأ بذلك، ولا يرِّق لشكواها. وتفاقم الأمر بها حتى هامت على وجهها، ومزَّقت ثيابها ،..." (٨١) ، كذلك تظهر معاناة المرأة العاشقة الشاعرة في الخبر التالي يقول : " ...، قد سمعتُ بكاء متتابعًا ونَفَسًا عاليًا، فاتّبعتُ الصوت، فإذا أنا بجاريةٍ كأنّها الشّمس حسنًا، ومعها عجوز، فلطِئتُ بالأرض لأنظر إليها، وأُمتِّع عيني بحسنها ، فسمعتُها تقول :

دَعَوتُك يَا مَولَاي سِرًا وجهرةً ... دُعَاء ضَعِيف القَلبِ عَن مَحْمَلِ الحب

بليتُ بقاسي القلبِ لا يَعْرِفُ الهَوى ... وأقتَلِ خَلقِ الله للهَائِمِ الصَّبِّ

فإن كُنتَ لم تَقضِ المَودَة بَيْنَنا ... فلا تُخلِ من حُبِ له أبداً قَلْبِي

رَضِيتُ بهذا في الحَياةِ ، فَإن أَمُتْ ... فَحَسْبِي ثواباً في المَعَادِ به حَسْبِي(٨٢)

وتظهر صورة المرأة العاشقة أيضًا مع خبر عثمان بن عمر التيمي،" إذ حدث عن فتى من بني أسد هوِي فتاة من فخذه، وكان أيسر منها حالًا فمنعه أبوه عنها، وحين تزوجت بعثت له بجاريةٍ تدعوه للقاء، فأتاها حيث زعمت، فوجدها

ميتةً فحملها وأدخلها شَعبًا، ثم التزمها فمات معها. فالتمسا حولًا لا يعلَم لهما خبر، وإذا بهاتفٍ يهتف على الجبل الذي هما فيه وكان يدعى جبل أعراف:

إنَّ الكَرِيمَين ذَوي التَّصَافِي الذاهبين بَالوَفاءِ الصَّافِي

والله ما لَقيتُ فِي تَطْوَافِي أَبْعَدُ مِنْ غَدرٍ وَمِن إخْلَافِ

مِن ميتين فِي ذُرَى أَعَرافِ

فلما صعِد القوم إليه وجدوهما ميتين فواروهما التراب"[٨٣]،حيث نرى إن صورة الموت في المصارع تختلف عن الموت عامة، فالموت في أغلب الأحيان يفرق الأحبة، لكنه لدى ابن السراج يمثل " حالة فريدة من النّقاء الروحي، هذه الأخيرة من شأنها تأهيل أرواح الأحبة، الذين أضناهم البعد من التمازج وتمكينهم من ديمومة اللّقاء"[٨٤] ، أنه حالة من الالتقاء الروحي بين المحبين.

٣ – المرأة التي لديها القدرة لتختار زوجها:

وتظهر تلك الصورة للمرأة وذلك في خبر بريرة مع زوجها الحبشي؛ لتدل على تكريم الإسلام للمرأة، ومنحها حريتها في اختيار شريك حياتها يقول :" لما أُعتِقت بريرة، وكان زوجها حبشيا، خُيرت فاختارت فِراقه، فكان يطوف حولها ودموعه تسيل على خديه حبًا لها، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لعمه العباس : أما ترى شدة حبه لها وشدة بغضها له ؟ فقال لها النبي –صلى الله عليه وسلم– : لو تزوجتِه ؟ فقالت : إن أمرتني. قال: لا آمركِ ولكني شفيع، فلم تفعل، وعن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس : أن زوج بريرة كان عبدًا أسودًا مولى لبني المغيرة ، يوم أُعتِقت والله لكأني به في أطراف المدينة ونواحيها، وإن دموعه لتجري على لحيته يتبعها ويترضاها لتختاره فلم تفعل[٨٥]".

٤ – صورة المرأة العفيفة التي لا ترضى الحرام :

وهي صورة كثيرًا ما تظهر في قصص المصارع ،وربما أرادها ابن السراج؛ ليظهر لنا نظرته إلى المرأة بصفة عامة، فهي مثال للعفاف يقول: "كان في بني إسرائيل رجل لص يقال له برزين المناقيب قال أعجبتني امرأة من نواحي الكوفة، فأخذت سيفي وخرجت في السحر، فلقيت بعير سقاء فضربت عنقه، ثم توجهت نحوها فتسورت عليها فعالجتها، فلم أقدر عليها، وامتنعت أن تدخل معي في الحرام" [٨٦] ،هنا نري ابن السراج وهو يكرم المرأة، ويرفع من شأنها فهي عندما قدمت المساعدة؛ دلت على أنها ذات خلق كريم، ولا تترد في مساعدة المحتاج ،وهي في الوقت نفسه عفيفة لا تقبل الحرام، وقادرة على الحفاظ على نفسها، وتظهر نظرته للمرأة العفيفة أيضًا في خبر عن ابن أخ الحجاج من أنّه كان أميرًا على واسط، حيث كانت امرأة يقال أنّه لم يك في ذلك الوقت امرأة أجمل منها، وكان لها أربعة إخوة، فأرسل إليها مع خادمٍ له يريدها على نفسها، فأبت، وقالت له:" إن أردتني فاخطبني إلى إخوتي، فأبى وقال: لا ! إلاّ كذا، وعاودها، فأبت إلاّ أن يخطبها إلى إخوتها، فأما حرام فلا "[٨٧]

٥ – صورة الزوجة الوفية:

كما تتضح نظرة ابن السراج للمرأة في صورة الزوجة الوفية وذلك في خبر تحت عنوان (وفاء زوجة) قال[٨٨] :" تزوج مالك بن عمرو الغساني بابنة عم النعمان بن بشير، فشغف كل واحد بصاحبه وكان مالك شجاعًا، فاشترطت عليه أن لا يقاتل... شغفه عليه وضنى به فباشر القتال فأصابته جراح فقال وهو مثقل منها :

أَلَا لَيْتَ شعري عَن غَزَالٍ تركته إِذَا مَا أَتَاهُ صَرعِي كَيفَ يَصْنَعُ؟
فَلَو أنني كُنتُ المُؤخّرَ بَعْدَهُ لَمَا بَرِحَت نَفْسِي عَلَيه تَطَلَعُ

وأنه مكث يومًا وليلة ثم مات من جراحه فلما وصل خبره إلى زوجته بكته سنه ،ثم اعتقل لسانها فامتنعت عن الكلام، وكثر خطابها فقال عمومتها وولاة أمرها نزوجها لعل لسانها ينطلق، فما كان في الليلة التي أهديت إليه فيها قامت على باب لقبة وقالت:

يَقُولُ رِجَالٌ : زوجُوهَا لَعَلَّهَا تقر وتَرضَى بَعْدَهُ بِخَلِيلٍ
فَأَخْفَيتُ في النّفسِ التي لَيْسَ بَعْدَهَا رَجَاء لَهُمٌ والصدقُ أفْضَلُ قِيلِ

فلما فرغت من الشعر شهقت ثم ماتت". لقد ظهر ابن السراج أن المرأة ليست عفيفة وذكية فحسب وإنما وفيه وشاعرة وأديبة فقد رفع ابن سراج من مكانتها، ونظر إليها نظرة احترام، وصور صدق عاطفتها ووفاءها؛ فقد أورد لهذه الزوجة شعرًا ترثي فيه زوجها، ولم ترض بعده بزوج آخر فكان آخر كلامها منصبًا على زوجها وصفاته الحسنة، التي لم تقبل بأحد بعده؛ وفاء منها له ولعشرتها معه .

٦ – صورة المرأة المراودة عن نفسها:

وتظهر صورة مراودة المرأة عن نفسها في المصارع مع خبر زليخا وسيدنا يوسف عليه السلام[٨٩] ،وكذلك في خبر أبو دهبل الجمحي فقد راودته امرأة حين خروجه للغزو "... فإذا امرأة جميلة قد أتته فدعته إلى نفسها، فأبى، فأمرت به فحبِس في بيت من القصر، وأُطعِم وسقي قليلاً قليلاً حتّى ضعف وكاد يموت، ثم دعته إلى نفسها، فقال : أما في الحرام فلا يكون ذلك أبدًا، ولكن أتزوجك[٩٠]"، ويتكرر صورة المراودة في خبر شاب بني إسرائيل كان يبيع القفاف" وبينما هو ذات يوم يطوف بقفافه،.. ، فاستقبلته ابنة الملك كاشفة عن

وجهها ونحرها، فطلب إليها أن تشتري منه فقالت: إنّا لم ندعك لهذا، إنّما دعوناك لكذا، تعني أن تُراوده عن نفسه، فقال لها : اتقي الله ! قالت له : إنّك إن لم تُطاوعني على ما أريد ،أخبرتُ الملك أنّك إنّما دخلتَ علي تُكابرني على نفسي[٩١]) ".

وربما تتكرر هذه الصورة خدمة للهدف الذي كان يسعى إليه ابن السراج؛ وهو نشر المعاني الفاضلة والحث على البعد عن المعاني السيئة، والتي قد تفاقمت في المجتمع وقتذاك.

٧ – المرأة اللعوب التي تتحول إلى عابدة:

تظهر هذه الصورة في المصارع في أكثر من خبر، وكيف تتحول المرأة اللّعوب المراودة عن النّفس إلى امرأةٍ صالحةٍ متعبدةٍ تخشى الله، وكأن بابن السراج وقد أحس بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه كفقيه، فجاء بهذه القصص كنوع من النصح والإرشاد؛ لغرس القيم في نفس المتلقي، وحثه على مقاومة شهواته. يقول: " أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض للربيع بن خيثم، فلعلّها تفتنه، قال : وجعلوا لها إن هي فعلت ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده فنظر إليها في تلك الحال، فراعه أمرها وجمالها، ثم أقبلت عليه ، وهي سافرة ، فقال لها الربيع : كيف بك لو نزلت الحمى بجسمك فغيرت ما أرى من نورك وبهجتك ؟ أم كيف بك لو نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين ؟ أم كيف بك لو سألك منكِر ونَكِير؟ فصرخت صرخةً، وخرت مغشياً عليها، قال : فو الله لقد أفاقت، وبلغت من عبادتها أنها يوم ماتت كانت كأنّها جذع محترِق"[٩٢]،ومنه خبر ذلك الشاب العابد الذي " تعرضت له امرأة ذات جمال وعقل؛ فشغُفت به

وراودته عن نفسها، فلما تمنع وذكر الله لها،... .ثم جاءت بعد ذلك بأيامٍ فوقفت له على طريقه، فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله لئلا يراها، فقالت: يا فتى لا ترجع، فلا كان الملتقى بعد هذا أبدًا إلاّ بين يدي الله عز وجلّ، وبكت بكاء شديدًا "[٩٣]

٨- المرأة العابدة العاشقة للحب الإلهي:

تظهر التجربة الصوفية في قصص المصارع، وكيف يتحول عشق المرأة إلى العشق الإلهي متخذة من مفردات العشق وسيلة لعشق ذات الله، يظهر ذلك مع خبر ذي النون المصري يقول [٩٤]: "بينما أنا أسير على ساحل البحر، إذ بصرتُ بجارية عليها أطمار شَعرٍ، وإذ هي ناحلةٌ ذابلة، فدنوتُ منها لأسمع ما تقول، فرأيتها متّصلة الأحزان بالأشجان، وعصفت الرياح واضطربت الأمواج، وظهرت الحيتان، فصرخت، ثم سقطت على الأرض، فلما أفاقت نحبت، ثم قالت : سيدي ! بك تقرب المتقربون في الخلوات، ولعظمتك سبحت الحيتان في البحار الزاخرات، أنت الذي سجد لك سواد اللّيل وبياض النهار والفلك الدوار والبحر الزخار والقمر النّوار والنّجم الزهار، وكلّ شيء عندك بمقدار؛ لأنّك الله العلي القهار:

يَا مُؤنِس الأَبْرَارِ في خَلَواتِهِمْ يَا خَير مَنْ حَطّتْ بِهِ النّزالُ
مَنْ ذَاق حُبَّكَ لا يَزَالُ مُتيَمَاً قرِح الفؤاد يَعُودُهُ بَلبَالُ
مَنْ ذَاق حُبَّكَ لا يَرَى مُتْبَسمَا فِي طُولِ حُزنٍ للحَشَا يَغْتَالُ

فقلت لها : من تريدين ؟ فقالت : إليك عني ، ثم رفعت طرفها نحو السماء فقالت: ♣

أُحُبَّكَ حُبَّين ، حُبَّ الودَادِ وحباً لأنّك أَهْلٌ لِذَاكَا
فَأَمَّا الَّذِي هُو حُبّ الوِدَادِ فحب شُغِلتُ بِهِ عن سُوَاكَا
وَأَمَّا الَّذِيَ أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فكشفُك للحُجبِ حتى أَرَاكَا
فَمَا الْحَمْدُ في ذَا وَلَا ذَاكَ لِي وَلَكنْ لَكَ الحَمْدُ في ذَا وَذَاكَا

ثم شهقت شهقةً، فإذا هي قد فارقت الدنيا، فبقيتُ أتعجب مما رأيتُ، ومن ذلك أيضًا خبر سوسن العابدة (٩٥)

٩ – صورة المرأة المغدور بها:

يظهر ذلك في قصة " عزة وكثير"" أرادت عزة أن تعرف ما لها عند كثير فتنكرت له، وقامت به متعرضة، فقام فاتبعها، فكلّمها، فقالت له: أين حبك عزة ؟ فقال: أنا الفُداء لك، لو أن عزةَ أمة لي لوهبتها لك. قالت: ويحك ! لا تفعل، فقد بلغني أن هالك في صدق المودة، ومحض المحبة والهوى على حسب الذي كنت تُبدي لها من ذلك وأكثر، وبعد فأين قولك:

إِذَا وَصَلَتنا خِلّةٌ كَي نُزيلَهَا أَبَيْنَا*، وَقُلْنَا : الحَاجِبِيةُ أولُ

فقال كثير: بأبي أنت وأمي، أقصري عن ذكرها واسمعي ما أقول. ثم قال:

مَا وَصَلُ عزةَ إلاّ وصُلُ غانيةٍ في وصلِ غانيةَ من وَصْلِهَا خلَفُ

ثم قال :هل لك في المخالة* ؟ فقالت له : كيف بما قلت في عزة وسّيْرتَه لها؟ فقال: أقلبه فيتحول إليك ويصير لك. قال: فسفرت عن وجهها، عند ذلك، وقالت أغدرًا وانتكاثًا يا فاسق؟"(٩٦) ،حيث تظهر المرأة المغدور بها، فيظهر العاشق المدعي من العواطف الحارة القوية في الظاهر، لكنه يخفي الغدر في الباطن، ومن أمثلة ذلك أيضًا خبر: " كان العلاء بن عبد الرحمن التغلبي من أهل الأدب والظرف، فواصلته جارية من جواري القيان، فكان يظهر

لها ما ليس في قلبه، وكانت الجارية على غاية العشق له، والميل إليه ، فلم يزالا على ذلك حتى ماتت الجارية عشقًا له ووجدًا به،..."[٩٧]

١٠- صورة المرأة حورية الجنة والتبشير بها ومنها:

ومن ذلك قصة خروج رجلين في الجيش، حيث يطلب أحدهما إلى الآخر أن يغتسل عسى الله يعرضهما للشهادة، ولما فرغ هو من الاغتسال سقط عليه حجر من الحصن فأصابه، فشك أصحابه إن كان حيًا أو ميتًا. وبينما هم كذلك أخذ المصاب يبكي مرة ويضحك أخرى، ثم فتح عينيه وراح يسرد عليهم ما رآه ساعة غُشي عليه. يقول :" .... ، فإذا أنا بامرأةٍ لم أر مثل جمالها، وعليها حلي وثياب لم أر مثلها، وأقبلتْ حتى وقفتْ علي، ولم تتخط تلك النمارق، ولكن أقبلت بين السماطين حتّى وقفتْ وسلّمتْ، فرددتُ عليها السلام ، فقلتُ: من أنتِ ، بارك الله فيكِ ؟ فقالت: أنا زوجتك من الحور العين."[٩٨]، ومن ذلك أيضًا قصة منام رابعة العدوية والتي تتعلّق بالكرامات يقول":... قالت : فبينما أنا ذات ليلة راقدةٌ ،رأيتُ في منامي كأني رفِعتُ إلى روضةٍ خضراء، ذات قصورٍ ونَبتٍ حسن، فبينما أنا أجول فيها أتعجب من حسنها، إذا أنا بطائرٍ أخضر، وجاريةٍ تُطارده، كأنّها تُريد أخذه، قالت : فشغلني حسنُها عن حسنه ، فقلتُ: ما تُريدين منه ؟ دعيه، فو الله ما رأيتُ طائرًا قطُّ أحسن منه. قالت : بلى ، ثم أخذتْ بيدي فأدارتْ بي في تلك الروضة حتى انتهت بي إلى بابِ قصرٍ فيها، فاستفتحتْ، ففُتِح لها، ثم قالت: افتحوا لي بيت لَمقَة، قالت: ففُتِح لها باب شاع منه شُعاع استنار من ضوء نوره ما بين يدي وما خلفي، وقالت لي: ادخُلي، فدخلتُ إلى بيتٍ يحار فيه البصر تلألُؤًا وحسنًا، ما أعرِفُ له في الدنيا شبيهًا أشبهه به"[٩٩]

ب- **الصفات الحسية والمظهر الخارجي للمرأة في** المصارع:

ولقد شكلت المرأة عنصرًا رئيسًا في بنية المصارع ، وقد تركّز وصف الصفات الحسية والمظهر الخارجي للمرأة فيه على بعض الجزئيات، كوصف ملامح الوجه وطبيعة الابتسامة، والنظر والصوت إلى غير ذلك من الصفات التي تجعل من المرأة صاحبة جمالٍ باهرٍ، والثياب والحلي، وكذا وصف مقومات الشخصية من ذكاء وطبع ومستوى اجتماعي، وأيضًا وصف المشاعر والانفعالات والعواطف، يقول: " أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض للربيع بن خيثم، فلعلّها تفتنه... فنظر إليها في تلك الحال، فراعه أمرها وجمالها"[١٠٠] ، ومنه قوله: " فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل"[١٠١]،ويقول:" ...، قد سمعتُ بكاء متتابعًا ونَفَسًا عاليًا، فاتّبعتُ الصوت، فإذا أنا بجاريةٍ كأنّها الشّمس حسنًا،"[١٠٢]، وهذا الوصف بالجمال والبراعة يكاد تتصف به كل امرأة سواء أكانت حرة أم جارية، لكن حقيقة الأمر أن الجارية في المصارع لها صفات أخرى تميزها عن باقي النساء، فهي امرأةٌ متعلِّمة، شاعرة، تُتقن العزف والغناء، ونبوغها في جملة هذه الفنون يزيدها قيمةً وجمالًا على جمالها الطبيعي، " عندي جارية من حالها ومن صفتها علّمتُها الغناء.."[١٠٣]،ومنه أيضًا قوله: "كان بالمدينة جارية ظريفة حاذقةٌ بالغناء..."[١٠٤]، ومنه قوله : " اختفى إبراهيم بن المهدي زمن المأمون عند بني عصمة بني أبي جعفر عند هربه من المأمون لشدة طلبه له،...، ووكَلَت به جارية يقال لها ملَك، وكنت قد أدبتها، وأنفقت عليها الأموال، وكانت مغنية حاذقة، راويةً للأشعار، بارعة الجمال، حسنة القد، عاقلة،..."[١٠٥]،كما تظهر الجارية متفوقةً في جميع الميادين مقارنةً بباقي النساء، يظهر هذا من خلال استخدامه لصيغة التفضيل التي تتكرر في

المصارع يقول: "دعاني فتى من أهل المدينة إلى جاريةٍ تُغني، فلما دخلنا عليها، إذ هي أحسن الناس وجهًا، وإذا بها انخراط وجهٍ وسهو وسكوت"[١٠٦]،ومنه قوله : " كان في بني عامر من بني الحريش جاريةٌ من أجمل النساء، وأحسنهم ، لها عقلٌ وأدب"[١٠٧]، ويقول أيضًا:" مررت أنا وصاحبي بجارية عند قبر، لم أر أحسن، ولا أجمل منها، وعليها ثياب نظيفة وحلي كثيرة ،وهي تبكي على القبر فلم نزل نتعجب من جمالها وزينتها وحزنها "[١٠٨]، فاستخدامه (أحسن / أجمل / أروع)؛ يدل على تفوق الجارية على باقي النساء في جميع صفاتها، وإذا ذهبنا لنتعرف على زينة المرأة كما جاءت في المصارع؛ فيبدو أن رغد العيش التي تمتع به العربي في تلك الفترة في العصر العباسي؛ قد أثر على زينة المرأة حيث ارتداء الملابس الحريرة المزخرفة، والحلى من الذهب واللّؤلؤ ،يقول " ...جاريةً قد أقبلت إليه وعليها ثوب من اللّؤلؤ تتثنى أطرافه، وبيدها كتاب من حرير أخضر مكتوب بالذهب..."[١٠٩]، ومنه أيضًا قوله:" ...، فما لَبِثَت أن خرجتْ علي جارية كأنّها خوط بانٍ، أو مشق قضيب ريحان، عليها مِرطُ حرير أخضر، قد لَصِقَ على رطوبة جسمها، تمشي على فاضل شعرِها تَطرقُ بنعلها، وتفتن والله من رآها"[١١٠]،أما وصف الشعر، فمن الواضح أنهم كانوا يفتنون بطول الشعر؛ فكما يقال زينة المرأة في شعرها فيقول: " إذ بصرتُ بجارية عليها أطمار شَعرٍ، ..." [١١١] ، أما عن النقش على الحلى للمرأة وهذا كان واضحًا في أكثر من خبر وخاصة للجواري، فمنه قوله :" نقشت كلثم على فص خاتمها :لا غفر لمن هجر. ونقشت خليدة الحيرية : الموت في الحب جميل."[١١٢] ،أما عن وصف العيون فقد أبدع العربي في ذلك يتضح ذلك من قول أحدهم :".... لو أنكم رأيتم المحاجر البلج ترشق بالأعين الدعج من فوقها الحواجب الزج، والشفاه

السمر تفتر عن الثنايا الغر، كأنها سرد الدر، لجعلتموها اللات والعزى، ودفعتم الإسلام وراء ظهوركم"[١١٣]، وبهذا يكون الوصف شكلًا من أشكال الخطاب يهدف إلى إشراك المتلقي؛ من خلال ذِكر الأشياء في مظهرها الحسي.

جـ – المكانة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمرأة في المصارع:

إذا تصفحنا المصارع فسوف تظهر لنا الأدوار التي كانت للمرأة المشرقية في ذلك العصر سواء أكان اقتصاديًا أم اجتماعيًا أم ثقافيًا؛ حيث يظهر الدور الاجتماعي للمرأة المشرقية وكيف منحها الإسلام حقوقها تلك الحرية التي تمتعن بها في تلك الفترة؛ ويتضح ذلك من حديثه عن المرأة صاحبة القرار في زواجها[١١٤] ، كما يظهر أيضًا مكانة المرأة الثقافي والاجتماعي والأدبي أيضًا في خبر زرعة بن رقيم وهو فتى جميل شاعر من بيت شرفٍ أحب المفداة ، فتاة جميلة بليغة بنت عز وشرف ، تجلس إلى فتيان الحي في مجلسٍ عام، " وكانت له بنت تسمى المفداة بارعة الجمال حصيفة اللب ،ذات لسان ملصق*، تفحم البليغ ، وتخرس المنطيق،..."[١١٥]، فوصف المفداة بأنّها بارعة الجمال حصيفة اللّب، ذات لسانٍ بليغ ، تُخرِس المنطق ؛هو وصفٌ يوضح المكانة الثقافية التي تمتعت بها المرأة في المشرق في القرن الخامس الهجري، وكيف كانت تجالس الفتيان في المجالس العامة أو الندوات لتسمع منهم ويسمعوا منها، كما يظهر السوق أيضًا فضاء من الفضاءات التي ارتادتها المرأة الأديبة؛ حيث التجمعات، وكيف شاركت المرأة وقتذاك في الإسهام في الحركة الشعرية مثلها مثل الرجال، فلا ضرر أن تُظهر المرأة براعتها ويسمع إنشادها، فتسحر بأشعارها من هم مأخوذون بحلاوة اللّفظ وبراعة النّظم، يقول حميد لحمداني: "فأحيانا يمكن للروائي أن يحول عنصر المكان إلى أداة للتعبير عن موقف الأبطال من

العالم...فإسقاط الحالة الفكرية أو النفسية للأبطال على المحيط الذي يوجدون فيه يجعل للمكان دلالة تفوق دوره المألوف كديكور يؤطّر الأحداث" [١١٦]. ومن ذلك الخبر التالي إذ يحكي عبد الرحمن البكري عن عمه :" إنّي لفي سوق ضرية ، ...، إذ أقبلت عجوز على ناقةٍ لها حسنة البزة، يتخيل فيها باقي جمال، فأناخت وعقلت ناقتها، وأقبلت تتوكّأ على مِحجنٍ لها، فجلست قريبًا منا، فقالت: هل من منشد ؟ فقلتُ للكلابي: أيحضرك شيء ؟ فقال: لا ! فأنشدتُها شعرًا لبشرٍ بن عبد الرحمن الأنصاري وهو،...، فجثَت على ركبتيها، وأقبلت تَنكُتُ الأرض بمحجنها وأنشأت تقول:

قِفي يا أُمَامَ القَلْبِ نَقْضِ لُبانَةً ونَشك الهَوَى ثُّمَ افعَلِي مَا بَدَا لَكِ
فَلُو قُلتِ طأ في النّارِ أَعْلَمُ أنّه هوى منكِ لِي أو مِنّةٌ من نَوالكِ
سَلِي البَانَةَ العُلْيَا مِنَ الأَجْرَعِ الذي به البان، هَل حَاولتُ غَيرَ وِصَالِكِ

قال الأصمعي : فأظلمت والله علي الدنيا لحلاوة منطقها، وفصاحة لهجتها، فدنوتُ منها وقلت: نشدتُكِ بالله لما زدتني من هذا؟ فرأيتُ الضحك في عينيها، وأنشدت،...، فو الله ما سمعتُ منشدةً بعدها أحلى ألفاظًا منها"[١١٧]،لقد كانت مشاركة المرأة العباسية استجابة للثقافة الواسعة آنذاك، وتلبية لنداء الحضارة المنفتحة على ألوان المعارف، والتمازج الثقافي آنذاك؛ مما يشير إلى القدرة العقلية، والنشاط الفكري، والدور الرائد الذي اضطلعت به المرأة، فكان بيانها مشرقًا، وأدبها جميلًا إلى حد كبير. أما عن المكانة الاقتصادية للمرأة في المصارع؛ فيظهر ذلك بصفة خاصة في القصص المأخوذة من العصر العباسي حيث أهدر الخلفاء الكثير من الأموال لاقتناء الجواري اللواتي أصبحن سيدات القصر فيما بعد، ومنهن من أصبحت أُم ولد ،ومن ذلك الخبر التالي:" حدثني

مشيخةٌ من خُزاعة أنّه كان عندهم بالطائف جاريةٌ متعبدة ذات يسارٍ وورع،..."[١١٨]، مما يشي بانخراط المرأة في النشاط الاقتصادي، سواء أكان ذلك على مستوى الحرائر، أم الإماء، " فقد ارتقى الحال ببعض الجواري إلى مكانة اجتماعية مرموقة في القصر الخلافي والمجتمع العباسي، أمثال الجارية حذف الناصرية(حدق) التي وصلت إلى بغداد عن طريق أحد تجار الرقيق، واستصفاها الخليفة الناصر لدين الله، فقد تحكمت في دار الخلافة تحكمًا عظيمًا ،وكان لا يقال لها إلا بالست حدق؛ لأنها كانت تتوكل مسؤولية الصرف على نساء الخليفة من الملبس والمأكل والهبات بعد استحصال موافقة الخليفة الناصر في أخذ المال من خزانة الخليفة الخاصة، وهذا الأمر يسري حتى على زوجات الخليفة، بل وشمل والدة الخليفة زمرد خاتون الشهيرة أيضًا، كانت تسأل القهرمانة حذف في احتياجتها"[١١٩]، ومن هنا يتضح لنا المكانة التي ظهرت عليها صورة المرأة في المصارع.

نتائج البحث:

١- كانت صورة المرأة في الطوق، وكذلك المصارع مرآة تعكس الحياة الاجتماعية والفكرية لذلك العصر في الأندلس والمشرق ؛ فهي تعكس الدور الحقيقي التي ساهمت به المرأة في ذلك العصر.

٢- كان اهتمام الفقهاء بظاهرة الحب ،يضاهي اهتمامهم بالعلاقات الاجتماعية الأخرى، وما يترتب عليها من حلال وحرام، كعلاقة المرأة بالرجل وحدودها .

٣- لما تختلف صورة المرأة في المشرق عنها في بلاد الأندلس كثيرًا في القرن الخامس الهجري، وهذا على عكس ما كانت تتوقعه الباحثة؛ وربما يرجع ذلك إلى أن الحضارة المشرقية في تلك الفترة قد أصابها كثيرًا من التغيرات نتيجة

الانفتاح على الثقافات المختلفة بعد الفتوحات الإسلامية ،وربما يرجع السبب في ذلك أيضًا إلى انتقال تلك الثقافة إلى بلاد الأندلس إبان الفتح الإسلامي لها، ورغبة الأندلسيين في السير على نهج المشارقة.

٤- المرأة تمتعت في المجتمع الأندلسي، وكذلك المجتمع المشرقي بنصيب وافر من الحرية، ونالت جانبًا من التعليم مما مكنها من رفد الحياة الثقافية بإسهامات جديدة، سواء في المجالات التعليمية أم الدينية أم الأدبية.

٥- ظهور المرأة العاشقة لله وعبرت عن كون الخالق حبيبها، فكانت تناجيه على الدوام، فهو سبحانه وحده المطلع على فؤادها، ولا يغيب عن خاطرها في المصارع، ولا توجد مثل هذه الصورة في الطوق؛ ربما لاتساع حركة الزهد والتصوف في العصر العباسي في المشرق نتيجة عوامل عدة، وأسهمت المرأة في هذه الحركة، وكان لها دور فاعل للغاية؛ إذ نالت غذاء روحيًا هيأها للتعبير عن موضوع الزهد بتفرعاته وتشعباته، وإن كانت حركة الزهد في الأندلس موجودة أيضًا، لكن ليست بنفس الكيفية التي كانت عليها في المشرق، كما أن ابن حزم في الطوق، كان يعبر عن عاطفة الحب بين بني البشر، ليس للعشق الإلهي فيها نصيب فهي تجربة بشرية وفقط ،كما جاء في مقدمة كتابه، على عكس ابن السراج الذي تناول كتابه تجارب العشق حتى بين الحيوانات.

٦- كذلك ظهور المرأة حورية الجنة في المصارع، وهذه الصورة لم تكن موجودة في الطوق.

٧- تظهر المرأة في الطوق بمواصفات المرأة الأوربية ذات البشرة البيضاء، والشعر الأشقر، على عكس المرأة في المصارع تظهر صفات الجمال فيها بطول الشعر وسواده أي بالمواصفات الشرقية.

٨- اهتم ابن حزم في الطوق بتحليل سلوك المرأة تحليلًا نفسيًا؛ مستلهمًا ما رآه وتابعه بعين الناقد المحلل لا بلسان الناقل؛ وربما يرجع ذلك لنشأته بين الجواري والمربيات اللاتي قمن بتعليمه، وهذا ما لم يتوفر لدى ابن السراج في المصارع؛ فقد كان مجرد ناقلًا لقصصه.

٩- تظهر بعض صور المرأة في الطوق وهى تفعل بعض العلاقات المحرمة مع من تحب هذا الأدب المكشوف قدم عن طريق الوصف الجامد بعيدًا عن الوصف الحسي الذي يثير المشاعر، ويتنافى مع الأخلاق وبعضه قدم في صورة مثيرة لخدش الحياء، هذه الصورة لا نجدها لدى ابن السراج؛ ربما بسبب طبيعته الفقهية المتحفظة ؛وربما لأن البيئة المشرقية تحترم المرأة أكثر، ولا تسمح بظهور مثل هذه الصورة ،حيث كانت صورة المرأة صورة مرجعية ثقافية دينية يضع عليها هالة من القدسية.

١٠- ومن الظواهر الجديرة بالتسجيل رثاء الأزواج؛ لما فيه من صدق، وواقعية، وتدفق في المشاعر، ولهفةٍ من الزوجة الثكلى حيث نجد هذه الصورة في المصارع ولا نجدها في الطوق.

١١- لم تكن المرأة عموماً في القرن الخامس سواء في المشرق أم في بلاد الأندلس أداة للهو والعبث والتهتك، فهذه الصورة تختص بطائفة الجواري والمغنيات، مع أن بعضهن كانت لهن سيطرة على قلوب الأحرار، بل على السياسة العامة للدولة آنذاك.

الهوامش

(١) لحمداني، حميد ، (٢٠٠٣م)،القراءة وتوليد الدلالة، ط١، الدار البيضاء وبيروت، المركز الثقافي العربي ، ص١٣-١٤.

(٢) انظر : عبد الله، محمد حسن ،(١٩٨٠م)، الحب في التراث العربي، عالم المعرفة، عدد٣٦،ديسمبر ،ص٤٢.

(٣) الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي القاهرة، ، مكتبة الخانجي ، ص٢٩٠-٢٩٣.

(٤ ابن الخطيب، لسان الدين ،الإحاطة بأخبار غرناطة،ط٢،ج٤، تحقيق: محمد عبد الله عنان ، مصر،مكتبة الخانجي ،ص١١١-١١٦.

(٥) المراكشي ، عبد الواحد ، المعجب في أخبار المغرب، ط١، تحقيق د. شوقي ضيف، القاهرة، دار المعرفة ، ص ٣٥.

(٦) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد ، (١٤٠٨هـ) ،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت، دار صادر ، ج٣، ص٢٢١.

(٧) ابن حزم الأندلسي ،أبو محمد على بن أحمد، (،ط١،١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)مختصر طوق الحمامة وظل الغمامة في الألفة والألاف ،تحقيق عبد الحق التركماني، دار ابن حزم ، ص٢٢٧.

(٨) الطوق ، ص٣٥١.

(٩) نجم ،مفيد ، (٢٠٠٦م)، شعرية العنوان في الشعر السوري المعاصر – السياق والوظيفة – ، مجلّة نزوي ، مؤسسة عمان للصحافة و النشر والإعلان، العدد (٥٧).

(١٠) الماكري، محمد ، (١٩٩١م) ، الشكل والخطاب – مدخل لتحليل ظاهراتي ، ط١ ، الرباط، المركز الثقافي العربي ،ص٢٥٣.

(١١) ابن منظور ، جمال الدين محمد ، لسان العرب، المجلد العاشر، دار صادر، بيروت، مادة طوق ، ص٢٣١.

(١٢) الثعالبي، أبو منصور ،(١٩٥٦م)، ثمار القلوب، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة،،ص٤٦٥.

(١٣) الثعالبي: ثمار القلوب، ، ص٤٦٥.

(١٤) سيرنج، فيليب ، (١٩٩٢م)، الرمز في الفن والأديان والحياة، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق ، ص١٨٩-١٩٠.

(١٥) الطوق ،ص١٢٩.

(١٦) البخاري، محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري ،إشراف حسونة النواوي، المطبعة الأميرية،ط٢،١٣١٤هـ ،ج٤، ص١٦٢.

(١٧) ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك ،(١٩٦٦م)، الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ،ج١ ، ص١١٢.

(١٨) ابن بشكوال : الصلة،ج١ ، ص١١٠.

(١٩) الونسة ، فادية مروان أحمد ،(٢٠٠٤م)، السرد عند الجاحظ :البخلاء نموذجا، جامعة الموصل ، كلية الآداب ، العراق ، دكتوراه ، ص١٥٠.

(٢٠) البستاني ،بشرى حمدي ،(١٩٩٠م)، البناء الفني لشعر الحرب في العراق (١٩٨٠-١٩٨٨م)، دكتوراه ، كلية الآداب جامعة الموصل، ص٥٢.

(٢١) لسان العرب، دار صادر، ٣٨.

(٢٢) الطوق ، ص ٢٢٧.

(٢٣) الطوق ، ص٣١٣.

(٢٤) الطوق ، ص٣٩٠

(٢٥) الطوق ، ص٣٢٢

(٢٦) عبد الواحد ، مصطفي ،(١٩٧٢م)، دراسة الحب في الأدب العربي،ج٢، مصر دار المعارف ، ، ص٤١٨

(٢٧) الطوق ، ص١٧٤-١٧٦.

(٢٨) انظر: الطوق ، ص١٢٠

(٢٩) انظر: الطوق ،ص١٩٠.

(٣٠) الطوق ، ص٣٤٨

(٣١) الطوق ، ص٣٣٤-٣٣٥

(٣٢) الطوق ،ص٢٥٥

♣ حين تكون المرأة ذات عكاكيز وتسابيح فذلك أمر مفهوم ،أما أن تكون ذات ثوبين أحمرين فذلك زي أندلسي فيما يبدو

(٣٣) الطوق ا ، ص١٩٩.

♥ المساعفة والعون.

(٣٤) الطوق ، ص٢٢٥.

(٣٥) الطوق ، ص٢٢٦.

(٣٦) الطوق ،،ص٢٥٤

(٣٧) انظر: الطوق ، ص٢٤٩

(٣٨) الطوق ، ص٣٤٨

(٣٩) الطوق ، ص١٩٠-١٩١.

(٤٠) الطوق ، ص٢٧٦.

(٤١) انظر: الطوق ، ص٢٣٥.

(٤٢) الطوق ، ص٢٥٦

(٤٣) انظر: الطوق،ص١٨٣.، وكذلك الطوق صـ٢٥٣.

(٤٤) الطوق ، ص١٨٥

(٤٥) أمين ،أحمد ،(٢٠١٥م)، ظهر الإسلام، الدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع ، ،ج٣،ص٢٠

(٤٦) ابن الخطيب، لسان الدين ،الإحاطة بأخبار غرناطة،ط٢، تحقيق: محمد عبد الله عنان ، مصر،مكتبة الخانجي ج١،ص١٣٩.

(٤٧) الطوق ، ص١٨٥.

(٤٨) التثبيت: هو المفهوم الذي أورده فرويد في نظرية التحليل النفسي، ونعني به أن الطاقة النفسية تظل مهتمة بإشباع حاجات مرحلة معينة من مراحل النمو النفسي أو الجنسي، بالرغم من أن الطفل قد انتقل من مرحلة تالية من مراحل النمو –معجم مصطلحات الطب النفسي :إعداد لطفي الشربيني، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ،٢٠٠٠م، ص. ١٣١

♣ الوقص:: القصر

♥ فوه: سعة الفم وعظمه

(٤٩) الطوق ، ص١٨٥

(٥٠) الطوق،ص١٨٧.

(٥١) الطوق ،ص١٩٣.

(٥٢) ابن حزم ، الطوق ، ص٣٥٠.

(٥٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٥٤) انظر: الطوق ، ص١٩٩

(٥٥) انظر: الطوق ، ص٢٢٦

(٥٦) الطوق ، ص٢٢٧.

(٥٧) الطوق ، ص١٧٧–١٧٨

(٥٨) انظر: الطوق ، ص٢١٧

* أبواب قرطبة سبعة : باب القنطرة إلى الجهة القبلة ، وباب الحديد : ويعرف باب سرقسطة ، وباب ابن عبد الجبار ويعرف باب طليطلة، وباب رومية ، وباب طلبيرة ، ثم باب عامر القرشي ،ثم باب الجوز ويعرف بباب بطليوس ثم باب العطارين وهو باب إشبيلية ، ومن دونه تجارة العطور ودكاكين العطارين.(انظر : النفح ،ج١، ص٤٦٥.

(٥٩) انظر: الطوق ، ص١٧٤–١٧٥.

(٦٠) الطوق ، ص١٧٠.

(٦١) الطوق ، ص٢٠٤-٢٠٥

(٦٢) انظر: الطوق ، ص٢٢٦.

(٦٣) الحموي، أبو عبد الله ياقوت، (١٩٩١م)، معجم الأدباء، ج٢، ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ص٣٧١.

(٦٤) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ص٣٧٤.

(٦٥) ينظر ولادته ووفاته في : ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، ص ، ٣٧٢ ،وينظر أيضا :جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر ، ١٩٦٤م،ط١،ج١، ص٤٨٦.

(٦٦) عدنان ، عدنان محمد ، (١٩٩٨م)،نظرات في كتاب مصارع العشّاق لابن السراج البغدادي، مجلة التراث العربي، دمشق،العدد،٧٣تشرين الأول ، ص١١٧.

(٦٧) منصور ، سليمان، (١٩٩٥م)، قصاصنا العرب، بيروت، دار الجيل ، ص٧٧.

(٦٨) عبدالله ، محمد حسن، الحب في التراث العربي، ص.٢٣٨.

(٦٩) العظم، صادق جلال،(٢٠٠٢م)، في الحب والحب العذري، ط ٥ ، سوريا– دمشق، دار المدى للثقافة والنشر ، ص١٨.

(٧٠) على ،على إسماعيل ، (١٩٩٥م)،نظرية التحليل النفسي واتجاهاتها الحديثة في خدمة الفرد، الإسكندرية ، دار المعارف الجامعية ، ص٢٠.

(٧١) انظر: عبد الواحد ، مصطفى ، دراسة الحب في الأدب العربي ، ص٣١٧

(٧٢)) هولب، روبرت ،(١٩٩٤م)، نظرية التلقي،ط١، ترجمة عز الدين اسماعيل، جدة ، النادي الأدبي الثقافي ، ص٢٥٣.

(٧٣) قطّوس، بسام موسى،(٢٠٠١م)، سيمياء العنوان ، ط ١، عمان ، وزارة الثقافة ، ص ١١٩.

(٧٤) حيدوش، أحمد ، الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث، بن عكنون الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ص١٤.

(٧٥) عبد الفتاح ،سيد صديق ، (١٩٩٦م)، العشق والحب في الدين واللغة ، ط١ ، القاهرة، دار الأمين للطبع والنشر والتوزيع ، ص١٠٣.

(٧٦) الحصري، أبو إسحاق،(١٩٧٠م) ،زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق علي محمد البجاوي، مصر، دار إحياء الكتب العربي، ص١٠.

(٧٧) السيوطي، جلال الدين ، (١٩٦٣م)، المستظرف من أخبار الجواري، تحقيق صلاح الدين المنجد،ط١،بيروت، دار الكتاب الجديد ، ص٣٩.

(٧٨) انظر : ابن النجار البغدادي، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، انتقاء أبي الحسن الدمياطي، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٧م،ط١،ج ١١، ص٢٠٤.

(٧٩)) ابن السراج القارئ ، أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين (١٩٩٧م)، مصارع العشاق، تحقيق : كرم البستاني، بيروت ، دار صادر ، ج١، ص٢٠٩.

(٨٠) المصارع ، ج ١، ص٥٥.

(٨١) المصارع ، ج ١، ص٥٣.

(٨٢)) مصارع العشّاق ، ج١ ، ص٧٧.

(٨٣) مصارع العشّاق ، ج١ ، ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٨٤) الجاسم ، مروان إبراهيم ،(٢٠٠١م)، عن الموت والحب،ط١،الكويت ، دار القلم للنشر والتوزيع ، ص٨١

(٨٥) مصارع العشّاق ، ج ٢، ص٨.

(٨٦) مصارع العشاق ، ج١،ص١٣٤.

(٨٧) مصارع العشّاق ،ج ١،ص٣٠٧.

(٨٨) ابن السراج ، المصارع ،ج١، ص ٥٠-٤٩.

(٨٩) مصارع العشّاق ،ج١ ، ص١٦٥.

(٩٠) مصارع العشّاق ،ج١ ، ص١٣٥.

(٩١)) مصارع العشّاق ،ج١ ، ص١٣٩.

(٩٢) مصارع العشّاق ، ج١ ،ص٢٢٥.

(٩٣) مصارع العشّاق ، ج١ ،ص٤٥-٤٦.

(٩٤) مصارع العشاق ، ج١ ، ص ٢٧٤-٢٧٥.

♣ هذه الأبيات لرابعة العدوية الصوفية المشهورة.

(٩٥) انظر: مصارع العشّاق ، ج ١،ص٧٤.

* **أبينا** :رفضنا

* **المخالة** :المصادقة

(٩٦) **مصارع العشاق**، ج١ ،ص ٨٨.

(٩٧) مصارع العشّاق ، ج ١،ص٢٥٣ -٢٥٤.

(٩٨) مصارع العشّاق ، ج١،ص١٧٧.

(٩٩) مصارع العشّاق ، ج١ ،ص٢٠٧.

(١٠٠) ، مصارع العشّاق ، ج١،ص٢٢٥.

(١٠١) مصارع العشّاق ، ج ١،ص٤٥.

(١٠٢) مصارع العشّاق ، ج١ ،ص٧٧.

(١٠٣) مصارع العشّاق ، ج١،ص ٣٤.

(١٠٤) مصارع العشّاق ، ج١ ، ص ٥٣.

(١٠٥) مصارع العشّاق ، ج ٢، ص ٦٥.

(١٠٦) مصارع العشّاق ، ج١ ، ص ٢٢٤.

(١٠٧) مصارع العشّاق ، ج٢ ، ص٤٦.

(١٠٨) مصارع العشّاق ، ج٢، ص٨٨.

(١٠٩) مصارع العشّاق ، ج١ ، ص١٨١.

(١١٠) مصارع العشّاق ، ج١، ص ١٩٣.

(١١١) مصارع العشّاق ، ج١ ، ص٢٤٧.

(١١٢) مصارع العشّاق ، ج٢، ص٧٧، وانظر المصارع ،ج٢، ص٧٤.

(١١٣) مصارع العشّاق ، ج١ صح ، ص٣٧.

(١١٤) انظر: مصارع العشّاق ، ج٢، ص٨.

♣ ملصق : بليغ

(١١٥) مصارع العشّاق ، ج١ ،ص١١٥.

(١١٦)) لحمداني ،حميد، (١٩٩١م) ،بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ط١، بيروت – لبنان، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، ص٧٠-٧١.

(١١٧) مصارع العشّاق، ج١،ص ٢٥٢-٢٥٣، وانظر : مصارع العشّاق ، ج ١، ص ٢٨٨ ، وكذلك مصارع العشّاق ، ج١،ص١٢٢.

(١١٨) مصارع العشّاق ، ج ١، ص ٥٥.

(١١٩) الدوسكي ، رمزية حمزة حسن ، مكانة المرأة الاقتصادية والاجتماعية في بغداد(٣٣٤-٦٥٩هـ)(٩٤٥م-١٢٥٨م)، مجلة جامعة دهوك، العراق، المجلد ٢١،العدد ١،ص٢٤٧.

المصادر والمراجع

١- الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح ،جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة ، مكتبة الخانجي.

٢- الحموي، أبو عبد الله ياقوت، (١٩٩١م)، معجم الأدباء، ج٢، ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية .

٣- ابن السراج القارئ ، أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين (١٩٩٧م)، مصارع العشاق، تحقيق : كرم البستاني، بيروت ، دار صادر .

٤- ابن حزم الأندلسي ،أبو محمد على بن أحمد، (،ط١،١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)مختصر طوق الحمامة وظل الغمامة في الألفة والألاف ،تحقيق عبد الحق التركماني، دار ابن حزم .

٥- الثعالبي، أبو منصور ،(١٩٥٦م)، ثمار القلوب، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة،.

٦- حيدوش، أحمد ،الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث، بن عكنون- الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية.

٧- قطّوس، بسام موسى،(٢٠٠١م)، سيمياء العنوان ، ط ١، عمان ، وزارة الثقافة.

٨- السيوطي، جلال الدين ، (١٩٦٣م)، المستظرف من أخبار الجواري، تحقيق صلاح الدين المنجد،ط١،بيروت، دار الكتاب الجديد.

٩- ابن منظور ،جمال الدين محمد، لسان العرب، المجلد العاشر ، بيروت، دار صادر.

١٠- لحمداني ، حميد، (١٩٩١م)، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ط١، بيروت – لبنان ، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع .

١١- لحمداني، حميد ، (٢٠٠٣م)،القراءة وتوليد الدلالة، ط١، الدار البيضاء وبيروت، المركز الثقافي العربي.

١٢- الدوسكي، رمزية حمزة حسن، مكانة المرأة الاقتصادية والاجتماعية في بغداد(٣٣٤-٦٥٩هـ)(٩٤٥م-١٢٥٨م)، مجلة جامعة دهوك، العراق، المجلد٢١،العدد١

١٣- منصور ، سليمان، (١٩٩٥م)، قصاصنا العرب، بيروت، دار الجيل .

١٤- العظم، صادق جلال،(٢٠٠٢م)، في الحب والحب العذري، ط ٥ ، سوريا- دمشق، دار المدى للثقافة والنشر.

١٥- المراكشي ، عبد الواحد ، المعجب في أخبار المغرب، ط١، تحقيق د. شوقي ضيف، القاهرة، دار المعرفة.

١٦- عدنان ، عدنان محمد ، (١٩٩٨م)،نظرات في كتاب مصارع العشّاق لابن السراج البغدادي، مجلة التراث العربي، دمشق،العدد،٧٣تشرين الأول.

١٧- على ،على إسماعيل ، (١٩٩٥م)،نظرية التحليل النفسي واتجاهاتها الحديثة في خدمة الفرد، الإسكندرية ، دار المعارف الجامعية.

١٨- سيرنج، فيليب ، (١٩٩٢م)، الرمز في الفن والأديان والحياة، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق.

١٩- ابن الخطيب، لسان الدين ،الإحاطة بأخبار غرناطة،ط٢،ج٤، تحقيق: محمد عبد الله عنان ، مصر،مكتبة الخانجي،.

٢٠- الماكري، محمد ، (١٩٩١م) ، الشكل والخطاب – مدخل لتحليل ظاهراتي ، ط١ ، الرباط، المركز الثقافي العربي .

٢١- عبد الله، محمد حسن ،(١٩٨٠م)، الحب في التراث العربي، عالم المعرفة، عدد٣٦،ديسمبر .

٢٢- الجاسم، مروان إبراهيم ، (٢٠٠١م)، عن الموت والحب، ط١، الكويت، دار القلم للنشر والتوزيع .

٢٣- عبد الواحد ، مصطفى ،(١٩٧١م)، دراسة الحب في الأدب العربي، مصر، دار المعارف .